استيندُرْف الألماني

ديانة قدماء المصريين

ترجمة

سليم حسن

الكتاب: ديانة قدماء المصريين

الكاتب: استيندُرْف الألماني

ترجمة: سليم حسن

الطبعة: ٢٠٢١

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الألماني ، استيندُرْف

ديانة قدماء المصريين/ استيندُرْف الألماني, ترجمة: سليم حسن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٨١ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٦٣٠٤ / ٢٠٢٠

ديانة قدماء المصريين

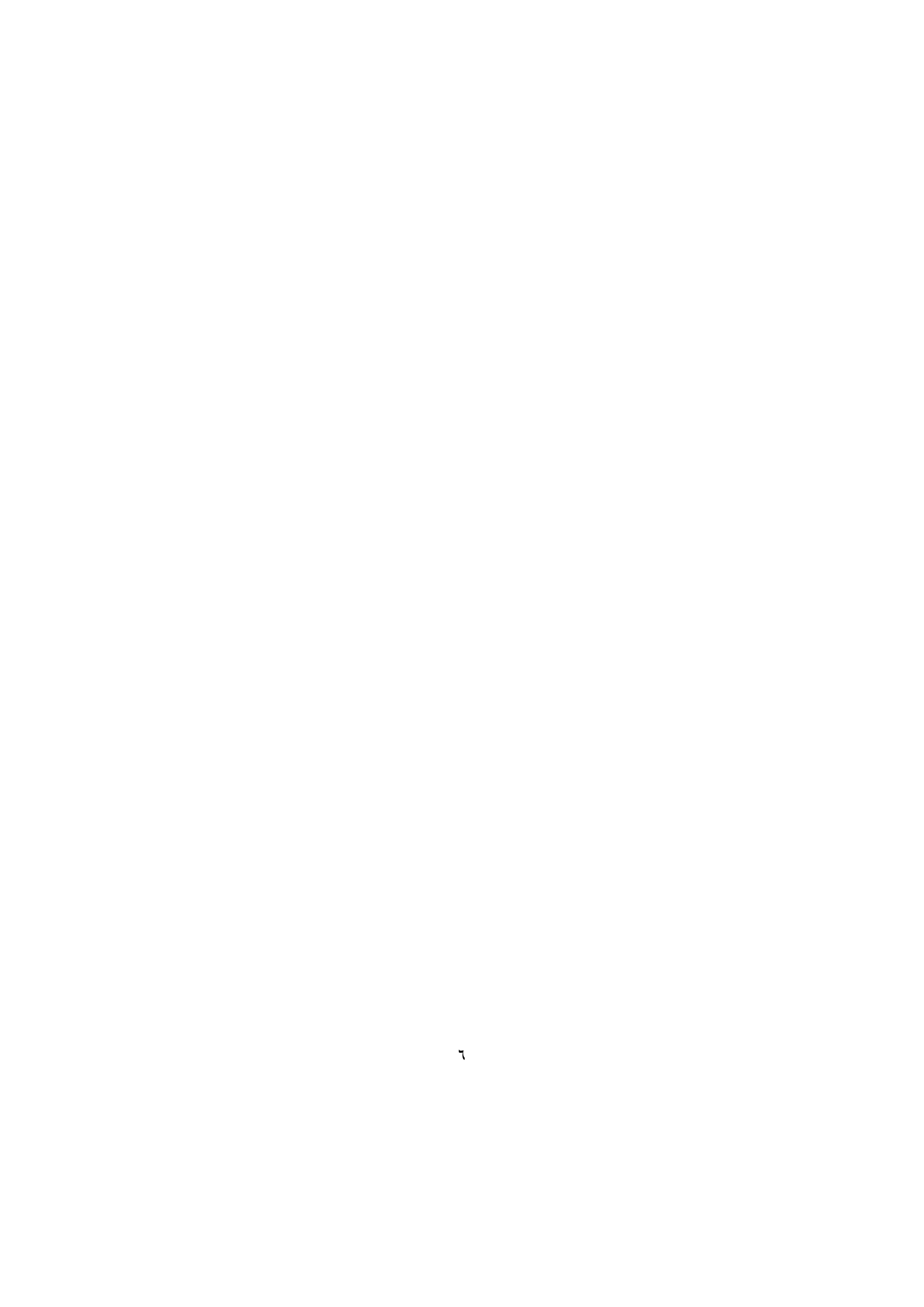




إلى أُستاذي العظيم

جُولنشّف

أهدي ترجمة هذا الكتاب



مقدمة المترجم

وبعد فقد اهتمت أُمم العالم المُتمدين مُنذ قرنين بكشف النقاب عن مدينة قدماء المصريين، وآثارهم وتبارى علماؤهم وأغنياؤهم وحكوماتهم في هذا المضمار، وأوقف كثير منهم حياته وأمواله على تعرُّف أسرار هذه المدينة ودرسها واقتناء آثارها.

حتى أنك لا تكاد تمر ببلد من أُمهات بلادهم دون أن ترى فيها دارًا لآثار المصريين ومدرسة لتعليم لغتهم. كل ذلك كان ولا يزال جاريًا في أوربا وغيرها، على حين بقى المصريون أنفسهم في سُبات عميق وجهل تام بأجدادهم وآثار مدنيتهم، حتى أنهم كانوا يدوسون بنعالهم ويهدمون بمعاولهم آثار تلك المدنية الخالدة، وهذا ما ساعد الأجانب المُتنافسين على حمل تلك الذخائر إلى بلادهم، فزينت قصورهم وملأت دور تحفهم.

بيد أنهُ في هذا العصر هبت في مصر نسمة أثرية هي بلا ريب إحدى ثمار النهضة القومية التي بهرت العالم، فقد أخذ المصريون أبناء أولئك العظماء يعرفون حقيقة أجدادهم الذين عمروا أديم وادي النيل مُنذ آلاف السنين، وأسسوا فيه أول مدنية في التاريخ البشري سطع نورها على العالم فاقتبست منهُ الأجيال الغابرة ونسجت على منوالها الأُمم الحاضرة. فلا غرابة أن رجع أبناء النيل إلى الانتساب إلى جنسيتهم الخالدة، وأصبحوا يرون الفخر كل الفخر في أنهم مصريون بعد أن كانوا لا يعرفون إلاَّ أنهم «أبناء عرب» أو «مسلمون».

لقد قمت بترجمة مُعظم هذا الكتاب مُنذ سنتين، ولكن لم تُتح الفرصة وقتئذ لإتمامه ونشره، فلما نما شعور الوطنية القومية وعم الفخر بالجنسية المصرية رأيت من واجبي إذاعة ما تعطش القيوم إليه من معرفة حالة بلادهم وأجدادهم القُدماء، وكان كشف مقبرة توت عنخ آمون، ذلك الكنز الذي بهر العالم وهز أركانه، فحفت الجماهير من أقاصي البلاد لزيارته وترك أبصار وبصائر كل إنسان مُتطلعة إلى معرفة أسراره، أكبر باعث وأعظم مُشجع لي على الإسراع بإظهار هذا الكتاب.

قد يتوهم القارئ عنوان الكتاب أَنهُ لن يجد فيهِ إلاَّ مُجرد ديانة واعتقاد غابر، ولكن الباحث في تاريخ قُدماء المصريين يدرك ما كان للديانة والحياة الآخرة من عظيم الأثر في مدنية القوم وعلومهم وفنونهم وآثارهم وسائر مرافق حياتهم، لما بين هذه وتلك من وثيق الارتباط. ولولا مُعتقدات المصريين الدينية لما رأَينا تلك المعابد والمقابر والأهرام والتماثيل والجُثث المُحنطة وطرف الفن وغير ذلك.

فالمُطلع على هذا الكتاب لن يقف على معرفة ديانة أَجداده القُدماء فحسب، بل إنهُ سيعرف كل ما تتوق إليهِ نفسه من أَسرار مدنيتهم وبراعتهم الفنية. هذا إلى أَنهُ سيقف على نشوء وتدرج الديانة المصرية وتأثيرها في فلسفة اليونان والرومان ومدنيتهم، ويدرك فضلها على ديانات العالم قديمًا وحديثًا.

لهذا الكتاب قيمة لا يعدله غيها غيره؛ فإنهُ مجموع محاضرات ألقاها في أكثر من ثماني عشرة جامعة أَمريكية ذلك الفيلسوف الألماني الفذ والعالم الأثري القدير «استيندرف» أُستاذ اللغة المصرية في جامعة لينرج وصاحب

المؤلفات القيمة ومدير أكبر مجلة مصرية أثرية في العالم، فحازت مُحاضراته أعظم إقبال.

حظيت بمقابلة المؤلف أثناء زيارتي لألمانيا في العام المنصرم، ورجوته أن يسمح لي بنشر ترجمة كتابه، فتفضل بذلك، وسره أن يطلع على كتابه أبناء أولئك العُظماء الذين صرف حياته في معرفة ودرس تاريخهم وآثارهم؛ فلا يسعني ولا يسع كل مصري إلاَّ إسداءه جزيل الشكر.

راعيت في ترجمتي مُنتهى الدقة؛ فلم يطوح بي غرام بلاغة العبارات وروعة الأساليب إلى خروج عن الأصل زيادة أو نقصًا، وقد حرصت كل الحرص عند ترجمة الأناشيد والأغاني القديمة على النص الحرفي دون تصريف أو تبديل؛ فلا غرو أن جاء في هذه بعض الغموض، ولكن القارئ إذا رجع بنفسه، فعاش مع القوم مُنذ آلاف السنين، وخلط حياته وأفكاره بحياتهم وأفكارهم، سهل عليه إدراك تلك الأناشيد ونحوها.

وقد اتبعنا الكتاب بصور مُعظم الآلهة وغيرها مما يهم القارئ رؤيته، ولم تكن هذه في الأصل، ولكن المؤلف سمح لنا بعد أن تم طبع الكتاب بإضافتها زيادة للإيضاح.

وإني أشكر لحضرة الأستاذ عمر الاسكندري أفندي ما قام به من مراجعة ترجمة مُعظم فصول الكتاب. أما شكري لصديقي الأستاذ منصور سليمان أفندي فيعجز عنهُ قلمي؛ فقد راجع معي الترجمة على الأصل ثانية، ونقح بعض العبارات العربية، وقام بقراءة المسودات أثناء الكبع، وإن لمساعدة هذين الفاضلين أكبر أثر في إظهار هذا الكتاب في شكله

الحالي.

ولا يفوتني أن أشكر للمسيو مونييه أمين مكتبة دار الآثار المصرية مُساعدته في جمع صور الكتاب، كما أشكر لحضرة نجيب أفندي متري صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها ما أظهره من العناية والصبر.

هذا وإني لأرجو أن يهتم المصريون بأجدادهم اهتمام العالم الأجنبي بهم، وأن يحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم، حتى يسترجعوا مجدهم ويحلوا المحل اللائق بهم، فيصبحوا جديرين بالانتساب إليهم، والله المُوفق إلى طريق الفلاح.

سليم حسن

٢١ ذي القعدة سنة ١٣٤١

٦ يوليه سنة ١٩٢٣

ديانة قدماء المصريين

المحاضرة الأولى

الديانة المصرية في نشأتها الأولى

مركز الديانة المصرية في تاريخ العالم

قد لا يكون في تاريخ أُمم العالم أجمع أمة تأصلت الديانة فيها وامتزجت بحياة أهلها امتزاجًا عظيمًا كالأمة المصرية؛ ولا نكون مُغالين إذا لم نستثن بني إسرائيل من بين هاتيك الأُمم. لذلك إذا تناولنا البحث في ديانة قدماء المصريين، فإنما نصف أهم جزء من تاريخ مدنيتهم القديمة؛ وأن لدى الباحث في ديانة المصريين وأساطيرهم وتفاصيل عباداتهم وحفلاتهم موردًا فياضًا ومنهلًا سيالًا لا يزال ينمو ويزداد على مر الأيام بالكشوف التي تترى.

مصادر الديانة المصرية

فمن زمن غير بعيد لم يكن بين أيدي الباحثين والمنقبين في هذا الموضوع غير المصادر الأجنبية؛ أي ما نقله إلينا كُتاب اليونان الأقدمون أمثال «هيردوت» و«دبودور» و «حورا بلون» مُضافًا إلى ما ورد عن ذلك في التوراة، أما الآن وقد حُلت رموز الكتابة الهيروغليفية وارتاد الباحثون وادي النيل ونقبوا عن أثاره تنقيبًا علميًا طوال القرن المنصرم، فقد سهل علينا

الوصول إلى المصادر الأصلية وصارت أمامنا جلية واضحة.

أما مقدار هذه المصادر فيخطئه العد، إذ لا يكاد يوجد متن واحد في اللغة المصرية القديمة إلّا وللديانة فيه دخل، فما من جدار معبد أو مقبرة أو نصب أو قطعة من الحجر الجيري أو الخزف المكتوب إلاّ وللنقوش التي عليها فائدة تختلف في الأهمية في تفهم مُعتقدات قدماء المصريين وشعورهم الديني، هذا عدا ما هو مُدون من ذلك في مُعظم أوراق البردي. وقد لا نكون مُبالغين إذا قررنا أن تسعة أعشار ما حفظته لنا الأيام من النقوش المصرية القديمة موقوف على أغراض دينية محضه وجل العشر الباقي يشتمل على معلومات لها دخل بالدين أيضًا.

قلة المعلومات عن الديانة وسببها

ولكن رغم وفرة المتون الدينية والشروح الخاصة بالآلهة والتعاويذ والمعابد والمقابر التي أبقتها يد البلي من عهد قدماء المصريين لا تزال معلوماتنا عن ديانتهم ضئيلة، وليس من المُستطاع إلى الآن بحث هذا الموضوع بحثًا علميًا دون أن يضطر الباحث إلى ترك فجوات في بحثه من جهة، ولا بُد له من جهة أُخرى أن يبني بعض أبحاثه على فروض نظرية قد يخطئ أو يصيب فيها. وأسباب هذه الحقيقة الغريبة التي تبدو مُدهشة لأول

نظرة كثيرة جدًا فإنه لا يغرب عن الذهن أن كل الموارد التي بين أيدينا يرجع الفضل في وصولها إلينا إلى محض المصادفة، إذ أن جُزءًا وفيرًا من مؤلفات القوم الدينية حفظته لنا الأيام لا لسبب إلاّ أنه وجد منقولًا على قبر من القبور أو على ورقة بَردي عُثر عليها مدفونة مع أحد الموتى في مقره الأزلي؛ غير أن هُناك كتابات دينية أُخرى لا تقل عن تلك في الأهمية قد فقدت لأن العادة لم تْقض بنقلها في نسخ عدة.

الأسباب الخارجي

ومن المُحتمل أيضًا أن رمال الصحراء المُجدبة لا تزال تضم في جوفها وثائق عدة تنتظر الساعة التي يُماط فيها اللثام عنها وتظهر للعالم. يُضاف إلى ذلك أن جل ما وصل إلينا من الوثائق والنقوش وورق البَردي لم يكتب إلاّ تبعًا لتقاليد مأتمية خاصة، ويتناول موضوعه الحياة الآخرة ولهذا كانت معلوماتنا عن أحوال الآخرة وفيرة. أما ما كان مُتداولًا بين الناس من الأساطير العدة الخاصة بالآلهة والتي لبا بُد أن يكون الكثير منها قد كسب قيمة أدبية جعلته يدون في بطون الكُتب فلم يصل إلينا منه إلاّ النزر اليسير؛ بل أن هذا القليل لم يصل إلينا إلاّ على شكل نتف صغيرة مُتقطعة. هذا إلى

أن الباحثين لم يعثروا على مجموعة شاملة للفلسفة*
المصرية القديمة ولك نقص لا ينتظر أن يسعدنا الحظ
بسده إذ أن نصيب هذا الباب من التدوين لم يزد على
نصيب التاريخ المصري أو السياسة المصرية.

الأسباب الداخلية

ولا بُد أن نضيف إلى عوامل النقص الخارجة عن دائرة
جهودنا عوامل أُخرى داخلية. من ذلك أن ما وصل
إلينا من الكتابات الدينية يعترض تفهم بعضها
مُشكلات لم يُمكن حلها، وستبقى البحوث العلمية
عاجزة عن إدراك كنهها زمنًا طويلًا. فمن ذلك أن
كثيرًا من المؤلفات الدينية (ويكفي أن نختص منها
بالذكر هُنا ما يُسمى بكتاب الموتى) لم يصل إلى أيدينا
منه إلاّ نسخ نُقِلَتْ في أزمنة مُتأخرة. أجل أننا إذا وازنَّا
بين عدة نُسخ مُختلفة من هذا الكتاب أمكننا في بعض
الأحيان أن نرجع بعض عباراته إلى أصلها الحقيقي،
غير أن الأصول التي بأيدينا كثيرًا ما تكون مُحرفة لدرجة
يستحيل معها بما لدينا الآن من الوسائل القيام بأي
تصحيح كان؛ يُضاف إلى ذلك ما يعترض الباحثين من
العُقد اللغوية والإشكالات العلمية.

فكانت نتيجة ذلك إننا وإن كُنا نعرف طائفة عظيمة

* ظهر حديثًا كتاب في الفلسفة المصرية يُسمى نصائح فيلسوف مصري ترجمه إلى الإنجليزية الأثري الكبير «جردنر».

من آلهة قدماء المصريين اسمًا وصورة ونعلم في أي معبد وعلى يد أي كهنة كانوا يعبدون، فإننا لم نقف تمامًا على حقيقة كنههم أو مبلغ منزلتهم عند الكهنة ودهماء القوم، بل لم نعثر على مُعظم الأساطير التي كانت تدور حول أشخاصهم.

موضوع الديانة مشوق

ولكن على الرغم من كل تلك الفجوات في معلوماتنا فإن موضوع ديانة قدماء المصريين فيه من المُشوقات الجمة ما يأخذ بألبابنا ولا غرو، فهي ديانة قومٍ بلغوا شأوًا بعيدًا من الحضارة. ديانة نمت وترعرت (كسائر مظاهر الحضارة المصرية) بمعزل عن أي تأثير أجنبي. وقد بقيت ما يقرب من أربعة آلاف من السنين وهي صاحبة المكانة الأولى من نفوس أُمة من أقدم أُمم العالم وأعظمها شأنًا.

وقبل أن أتناول البحث في موضوعي الأصلي – وهو شرح ديانة قدماء المصريين – رأيت من الضروري تمهيدًا لإيضاح أطوار تدرج الديانة ونموها أن أكتب كلمة موجزة عن تاريخ قدماء المصريين أو على الأقل أهم عصور تاريخهم.

ولنبدأ بتقسيم تاريخ ملوك مصر ناهجين في ذلك نهج مانيتون – وهو كاهن مصري وضع مُؤلفًا عن تاريخ مصر باللغة الإغريقية مُسترشدًا في هذا الأمر بما وصل

إلى عهده بطريق التواتر جيلًا بعد جيل.

قسم مانيتون ملوك مصر من عهد مينا أول ملوك الفراعنة إلى عهد الإسكندر الأكبر إلى إحدى وثلاثين أُسرة. وهذا التقسيم ينطبق بوجه عام على الأُسر الملكية المُختلفة التي حكمت بالتتابع أو مُجتمعة في وادي النيل. ولتسهيل تقرير الحقائق على وجه عام جرت العادة أن تقسم هذه الأُسر إلى عصور أو دول. وأهم هذه الدول ثلاث — الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة.

تقسيم تاريخ مصر حسب مانيتون

على أنه من أصعب الأمور وضع تواريخ مُؤكدة لتعيين أزمنة هذه الأُسر أو مُدة حكم كل من ملوكها. ولهذا نكتفي هُنا بالتواريخ التقريبية فيما يتعلق بالأزمنة الأولى. ولا يغرب عن أذهاننا أن الأرقام التي أوْردناها لم تعتمد بصفة قاطعة، بل قد تكون قابلة للتغير نقصًا أو زيادة بنحو مائة سنة أو أكثر، ولا يُمكن اعتبار التواريخ صحيحة مُحققة إلاّ عند ابتداء حكم الأُسرة الثانية عشرة وذلك بفضل الشواهد الفلكية التي ترجع إلى ذلك العهد.

هكاته يعرف مصر

«مصر منحة من النيل» عبارة فاه بها هكاته الجغرافي اليوناني وكان أول من نقلها عنه هيرودوت، ثم رددها بعده آخرون؛ وهي تنم عن كنه أرض مصر باختصار

ودقة تعبير لا يُمكن مُجاراتهما.

ففي الهضبة الصحراوية التي تشمل كل الجزء الشمالي الشرقي من القارة الأفريقية حفر النيل مجراه من آلاف من السنين مُخترقًا أحجارها الرملية وصخورها الجيرية في حين أن ما كان يرسب من مياهه من الغرين عامًا بعد عام جعل الجزء الأسفل من هذا الوادي (وهو مصر الأصلية) من أخصب بقاع المعمورة.

أصل سكان وادي النيل

وكان يقطن وادي النيل في الأعصر الأولى المُتوغلة في القدم زنوج أفريقيون؛ ولم يقتصروا على شمالي الخرطوم الحالية بل كان سكان مصر من هذا الجنس أيضًا.

لغة المصريين وديانتهم

وكانت لغة القوم أفريقية الأصل وديانتهم لا تكاد تميز عن الوثنية الساذجة التي يدين بها جم غفير من القبائل الأفريقية الحالية. وكان الفلاح المصري إذ ذاك يفلح أرضه بفأسه ويشقها بمحراثه بعد انخفاض الفيضان

وصناعاتهم

وكانت الأراضي الرطبة بريف مصر مرعى لعدد وفير من أسراب الماشية، أما فروع النيل الراكدة المياه والمستنقعات الكثيرة النائية المُترامية الأطراف بالوجهين البحري والقبلي فكانت تكتنفها الأعشاب الكثيفة من البردي ويؤمها عجول البحر والتماسيح وطير الماء. وكان المصري يصل إلى تلك البقاع المُوحشة في زورق

من البردي ليصطاد بخطافه ويرشق بنبله حيوان هذه المستنقعات، أو كان يصعد إلى قمم التلول الصحراوية التي تكتنف حافتي الوادي فيقنص فيها السباع أو الضباع أو بنات آوى.

حالة البلاد العمرانية

وقد كانت الحاكة إلى طلب القوت سببًا في تعلم القوم تدريجيًا والنهوض بهم إلى مراقي الحضارة ونور العلم؛ فكانت وفرة الماء الذي يفيض على تربة مصر كل عام داعية لتوزيعه بالتساوي على الحقول. ولتحقيق هذا الغرض كان لا بُد من إقامة السدود وحفر الترع وإنشاء الخلجان وبناء الجسور.

وكذلك كان لا بُد من تجفيف المُستنقعات لتحويلها إلى أراضٍ زراعية. كل هذه المجهودات يتعذر على الفرد القيام بها وحده؛ لذلك كان لزامًا على السُكان أن ينضموا ويُؤلفوا من أنفسهم وحدات كبيرة تلقي كل منها مقاليد أمرها في يد رئيسي برأسها. ومن ذلك تكونت إمارات صغيرة يحكمها رؤساء صغار.

والسياسية

تلك حتمًا كانت الدرجة التي وصل إليها المصريون الأقدمون من التقدم السياسي والعمراني حينما نزل على البلاد سيل من البدو منحدر من بلاد العرب مهبط أجداد الجنس السامي عن طريق برزخ السويس؛ فاجتاحوا البلاد واستولوا عليها دُفعة واحدة كما وقع

في الفتح الإسلامي. ولم يكن للجنس الإفريقي قِبَلٌ بمقاومة الأسيويين، بل أنهم اتخذوا لغة الغُزاة لغة لهم، وإن كانوا قد أكسبوها مسحة من لغتهم الأصلية. بيد أن غُزاة العرب

الفتح السامي

قد خضعوا عن طيب خاطر إلى المدين المصري الذي كان بلا مراء يفوق مدنيتهم، ولم يمض وقت طويل زمن حتى اندمج القاهر في المقهور وصار الفريقان أُمة واحدة.

آثاره في اللغة

ولم تبق لنا الأيام شيئًا يدلنا على هذا الفتح السامي الذي حدث قبل انبثاق فجر التاريخ، وليس لدينا ما يُؤيد صحته سوى القرابة اللغوية وهي التي اعتمدنا عليها في تخيل تلك الحوادث التي ذكرناها باختصار.

تكوين مملكتين في مصر

وفي فجر التاريخ تكوّن من الإمارات المُختلفة التي نشأت في البلاد المصرية مملكتان عظيمتان، وهما المملكة المصرية السُفلى وتشمل الأراضي الشمالية وهي ما يُقابل الدلتا الآن، والمملكة المصرية العُليا «الجنوب» وتمتد من جوار مدينة القاهرة الحالية إلى جنادل أسوان. وكانت حاضرة الدلتا (الأرض الشمالية) بلدة «بهدت»* وكان موقعها مدينة دمنهور

* المعروف الآن عند علماء اللغة المصرية أن بلدة بهدت هي إدفو الحالية.

الحالية، أما ملك الجنوب فكان يقطن في «امبص» على ضفة النيل الغربية شمالي الأقصر وعلى مقربة منها. وقد ظلت هاتان المملكتان جنبًا لجنب أجيالًا مستقلة إحداهما عن الأُخرى إلى أن اندمجتا إحداهما في الأُخرى وتكونت منهما دولة واحدة.

ضم القطرين

وقد حدث ذلك الاندماج عندما غزت مصر السُفلى مصر العُليا. ومن المُحتمل أن عاصمة الدولة الجديدة التي تألفت منهما كانت بلدة «هليوبوليس» (عين شمس) الواقعة على حدود تينك الولايتين.

العاصمة آون

وتُعرف هذه البلدة عند قدماء المصريين باسم «آون» وقد أصبحت في الوقت نفسه مهبط العلم والعرفان في طول البلاد وعرضها.

ويتعذر علينا أن نُقرر ولو على وجه التقريب طول المُدة التي استغرقها اتحاد القطرين حتى تكونت منهما دولة واحدة تحت حكم ملوك الدلتا.

وغاية ما نعلمه أن أواصر هذا الاتحاد أخذت تنحل عُقدتها تدريجيًا فأفضى ذلك إلى انقسام الدولة ثانية إلى ولايتين الوجه البحري والوجه القبلي.

انفصال القطرين ثانية

تحولت عاصمة الشمال (الوجه البحري) إلى «بوتو» الواقعة في منافع الدلتا على مقربة من ساحل البحر

الأبيض المتوسط. واتخذ ملوك الوجه القبلي حاضرتهم في الجنوب الأقصى في مدينة «نخب» «الكاب» وبين ملوك بوتو على أحسن ما يكون من الوئام والصداقة فقد أخذت نار الحرب يندلع لهيبها بين أهل القطرين من حين إلى آخر فكان أهل الصعيد يلقون الرعب

ضم القطرين ثانية

والفزع في قلوب أهل الدلتا وخاصة في مدينة «بوتو»، ومن هذه المشاحات خرج أهل الصعيد ولواء النصر معقود على جباههم فأخضعوا الدلتا بحد السيف وبذلك انضم القطران ثانية وكونا دولة واحدة جديدة.

مينا أول ملوك مصر

وقد لا نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قررنا أن «مينا» الذي قال مؤرخو اليونان أنه أول ملك معروف من بني البشر حكم مصر متحدة هو الملك الذي قام بتوحيد القطرين ثانية سنة ٣٣١٥ قبل الميلاد؛ غير أن ما وصل إلينا من المعلومات عن مينا وأخلافه من ملوك الأسرتين الأولى والثانية (٣٣١٥ – ٢٨٩٥ ق. م) قليل جدًا. وكل ما نعلمه أن أُسس على الحد الفاصل بين الأرضين (الدلتا والصعيد) «الجدران البيضاء» (منف) وهي قلعة شيدها لتلقي الرعب والفزع في قلوب أهل الدلتا المقهورين. وقد اتخذ ملوك هاتين الأُسرتين مقرهم من مدينة طينة الواقعة على مسافة قريبة من العرابة المدفونة حيث كشفت قبورهم

الساذجة في ختام القرن المُنصرم.

الدولة القديمة

وباستيلاء ملوك الأسرة الثالثة (٢٨٩٥ – ٢٨٤٠ ق.م) على صوجان الملك تحولت العاصمة إلى منف أو منفيس، وتُعتبر هذه الأُسرة بداية الدولة القديمة التي استمرت إلى نهاية الأُسرة السادسة التي قدرنا مدة حكمها من (٢٨٤٠ – ٢٣٦٠ ق. م). وهذا العصر من أعظم عصور مصر بلغت فيه البلاد الذروة في الحضارة والفنون؛ وفيه ابتدأ بناء الأهرام العظيمة وبخاصة «أهرام الجيزة» التي تُنسب إلى الثلاثة الملوك الشهيرة الذين تربعوا على عرش مصر في خلال الأُسرة الرابعة وهم: خوفو وخفرع ومنقرع؛ ولهذا السبب أُطلق على عهد الدولة القديمة «عصر بُناة الأهرام».

ولم تكد أيام الأُسرة السادسة تنتهي حتى انفرط عُقد نظام الدولة المصرية، ففشت الفوضى في داخل البلاد، وساد سوء النظام في أرجائها، وبقيت الحال كذلك حتى اعتلى أريكة الملك ملوك الأُسرة الحادية عشرة؛ وهم من سُلالة أُسرة نبتت في طيبة في الوجه القبلي، وقد تمكنوا من توحيد كلمة البلاد وتوطيد الحكومة والنظام (٢١٦٠ – ٢٠٠٠ ق.م).

الدولة الوُسطى

ومُنذ حُكم ملوك الأُسرة الثانية عشرة الذين كانوا سموني إما امينمحت وإما اسرتسن، ابتدأ عصر فلاح

وتقدم في تاريخ البلاد يُعرف بعهد الدولة الوُسطى، وتُعتبر مدة حكم هذه الدولة (٢٠٠٠ – ١٧٩٠ ق.م). وقد فتح ملوك هذا العصر الزاهر أعالي وادي النيل المعروفة ببلاد النوبة، وقاموا بأعمال عظيمة كبناء اللبرنته «قصر التيه» الشهير بالفيوم؛ وكذلك نمت في عهدهم الآداب وازدهت لدرجة جعلت أخلاف الدولة الوُسطى من الأجيال المصرية يعدون عصرها العصر الذهبي في الكتابة والتأليف.

عهد «الهكسوس»

ثم أناخت على البلاد فتن داخلية جديدة كانت سببًا في انحلال الدولة الوُسطى، والقضاء عليها قضاء مُشينًا. وقد حدث وقتئذ حادث على جانب عظيم من الأهمية من الوجهتين الدينية والسياسية. ذلك هو اجتياح البلاد بقبائل من البدور الساميين، انقضوا عليها من طريق الصحراء الشامية بقيادة الهكسوس أو مُلوك الرُعاة؛ واقد انتهزوا فرصة تزعزع الحالة السياسية في مصر واستولوا عليها بلا ضرب ولا طعن. وقد بقوا أصحاب السيادة فيها قرنًا من الزمان من (١٦٨٠ – ١٥٨٠ ق.م).

طرد «الهكسوس»

وقد كان النهوض بالبلاد ثانية وطرد هؤلاء الغُزاة الأسيويين بعد شجار عنيف احتدم وطيسه سنين عدة على يد أُمراء طيبة. ومن هذه الآونة انفتح عصر مجد

جديد تمثلت فيه عظمة مصر وقوة بطشها، وهو ما يُسمى عند المُؤرخين بالدولة الحديثة.

الدولة الحديثة

ويبتدئ هذا العصر بالأُسرة الثانية عشرة، وينتهي بالأُسرة العشرين، ويمتد من (١٨٨٠ إلى ١١٠٠ ق.م). وفيه نرى ملوك الأسرة الثامنة عشرة العظام، أمثال تحتمس وامنحوتب، يقودون الجيوش إلى آسيا ويسوقونها في فتوحهم حتى يوردوها شواطئ الفرات؛ وأصبحت في عهدهم كل سوريا ولاية مصرية.

العلاقة بين مصر والأُمم الأُخرى

ومن ثم أخذت العلائق المتينة تنمو بين مصر وأُمم الشرق المُتمدينة وبخاصة أشور وبابل، كما توطدت بينها وبين جزر البحر الأبيض المتوسط؛ وقد كان لهذا الاختلاط أثر بيِّن في حياة الأمة الاجتماعية والسياسية والفنية.

عصر الرعامسة

وفي عهد ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذين تسموا «بسيتي» و «رمسيس» فقدت مصر معظم مالها من الحياة كدولة قوية، وبالرغم من الانتصارات الحربية العدة التي أحرزها رعامسة الأسرة العشرين، لم يكن في مقدورهم إيقاف تيار الاضمحلال. وقد كان من جراء ذلك أن قام رئيس كهنة أمون في مدينة طيبة (الأقصر) وتربع على أريكة المُلك. على أن مدة حكم الكهنة لم تدم طويلًا؛ إذ انتزع منهم رؤساء الجيش من جنود

اللوبيين المرتزقة صولجان الملك، ومكثوا أصحاب القوة والسلطان في البلاد نحو قرن من الزمان.

الأُمم التي حكمت مصر

ثم أخذت البلاد مرة أخرى في الانحطاط تدريجيًا، وانقسمت إلى أمارات صغيرة. ثم قضى على هذه الولايات ملوك النوبة الذين انحدروا من الجنوب وغزوا وادي النيل، فدان لسلطانهم إلى أن أجلاهم عنه ملوك أشور العظام، فصارت مصر مدة من الزمان ولاية أشورية. ويعتبر عصر تسلط الأجانب من اللوبيين والنوبيين والأشوريين، أي أن من الأسرة الثانية والعشرين إلى نهاية الخامسة والعشرين، من أظلم عصور التاريخ المصري القديم وأنكدها.

عصر النهضة المصرية

وفي النهاية سنحت الفرص لبسمتيك أحد سلائل الفراعنة، فخلع نير الحكم الأشوري، وقضى على حكومات الأمراء الصغار، وأعاد إلى مصر وحدتها واتحادها. وفي أيامه وأيام أخلافه من فراعنة الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ – ٥٢٥ ق.م) أشرق على البلاد عهد رخاء وتقدم؛ فنمت التجارة وانتشرت بفضل العلائق التي وطدت دعائمها بين مصر وبلاد اليونان، ونهضت الفنون أَيضًا نهضة جديدة. ويرجع عهد بذر بذور هذه النهضة إلى عصر ملوك النوبة؛ إذ بث فيهم ورعهم الديني حب تقليد النماذج المصرية في

عهدها الأدبي، وهو عهد الدولة القديمة؛ ولم تقف هذه الروح عند الفنون بل ظهرت أيضًا في عبادة الآلهة والملوك الأول وفي الآداب والكتابة وألقاب رجال الدولة. فنجد القوم أُغرموا في كل ذلك بتقليد ما كان مُتبعًا في عهد الدولتين الوُسطى والقديمة. ولا غرابة إذًا إذا أُطلق على عهد الأسرة السادسة والعشرين عصر «النهضة المصرية».

الفتح الفارسي

ولكن واحسرتاه، فإن هذه النهضة لم تدم طويلًا، إذ في عام ٥٢٥ ق.م فتح «قمبيز» ملك الفرس البلاد المصرية وقضى على استقلالها القضاء المبرم، فبقيت ولاية فارسية إلى عام ٣٣٢ ق.م. وهو العام الذي سقطت فيه مصر في يد الاسكندر الأكبر. ولما تمزقت دولة هذا الفاتح العظيم بعد أن عاجله المنون وهو في شرخ الشباب، كانت مصر من نصيب بطليموس بن لاغوس أحد قواد الإسكندر، وأخلافه من بعده. وتعرف هذه الأسرة في التاريخ بالبطالسة أو «لجيده».

عصر البطالسة

وبقى وادي النيل خلال الثلاثة قرون التي حكموها فيه مركزًا لدولة زاهرة زاهية إلى أن انشبت الفتن الداخلية أظفارها به واحتدمت نار المشاحنات بين مصر والرومان، فأدى ذلك بعد واقعة أكتيوم عام (٣١ ق.م) إلى سقوط البلاد في يد «أغسطس» إمبراطور

الرومان.

عهد الرومان

وقد ظهر كل من ملوك البطالسة وملوك رومية بمظهر أخلاف للفراعنة، وحافظوا في الظاهر على معالم الحكومة المصرية القديمة، فاحترموا معتقدات رعاياهم المصريين الدينية، بل أنهم اشتركوا في تشييد المعابد الضخمة. بيد أن مواهب القوم العقلية كانت قد قضي عليها وانمحت الحياة القومية من البلاد؛ فلم يكن هناك عائق يذكر يحول بين دخول الدين المسيحي في أرض الفراعنة وانتشاره في أرجائها.

من أراد أن يقف على كنه أفكار قدماء المصريين وشعورهم الديني في العصور التاريخية وجب عليه أولًا أن يرجع البصر كرة ليتلمس شيئًا عن عبادة أولئك القوم في عصورهم المظلمة قبل بزوغ العصر التاريخي وقت أن كانت الأرضان (الوجه القبلي والبحري) لا تزالان جارتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى، ولم تكن بعدُ كل مصر متحدة مكوِّنة لدولة واحدة. لما غزا الساميون البلاد أخذوا عن الأفريقيين سكان مصر مدينتهم الراقية وتدينوا في الوقت نفسه بديانتهم

الساذجة.

تأثير الفتح السامي في مصر

ولربما خطر ببالك أن تتساءل هل احتفظ أولئك القوم بمعبوداتهم التي كانوا يتعبدون بها في الصحراء مسقط رأسهم، وهل راق بعض هذه المعبودات في أعين المصريين المقهورين؛ أو بالاختصار، هل كان للسامين أثر في معتقدات المصريين الأولى؟ إن هذا السؤال يتعذر أن نجيب عليه إجابة علمية شافية. حقًّا أنه من السهل جدًّا أن يتلاعب الباحث في أصول الكلمات فيتخذ من هذه الاعتبارات اللغوية حجة للقول بأن بعض الآلهة المصرية سامية المنشأ، أو أن يسقط من مجموعة المعبودات المصرية مالا ينطبق على الغرض الذي يصوره له الخيال. غير أن أمثال هذه الفروض لا تحتمل صحتها لما فيها من الجرأة؛ ولذلك نرى من الصواب أن نحجم ولو مؤقتًا عن الخوض في غمار التخيلات والفروض التي تجيز وجود أصل أسيوي أو سامي في أي عنصر من عناصر الديانة المصرية القديمة في عهدها الأول قبل انبثاق فجر التاريخ.

عبادة إله في كل مقاطعة

وغاية ما يُمكن أن يعتد به من الحقائق الثابتة في هذا الصدد هو أن مصر في عهدها الأول لم تكن فيها وحدة دينية، فكان في كل مدينة وفي كل بلدة وقرية معبودها الخاص الذي يحمي حوزتها وإليه كانت ترفع السكان كف الضراعة إذا دهمهم خطر، فيلتمسون معونته، ويبتغون رضاه بالضحايا وإقامة الصلوات، لاعتقادهم أن سعادة المجتمع وشقوته في يديه، فكان هو رب المقاطعة «أو إله المدينة» كما ذُكِرَ على النقوش. والحقيقة أن مثله كان كمثل الحاكم الدنيوي مُتسلطًا على رقاب كل من ألقيت مقاليد أمرهم بيده: يحمي حياتهم ويحفظ سلعهم ويدفع عن ماشيتهم كل طارئ أجنبي مفاجئ. وكان رضاه رحمة على الناس وغضبه نقمة ومتلفة لهم.

الإله يُسمى باسم المُقاطعة

ولقد بلغ من شدة ارتباط هذه الآلهة بمقاطعاتها أن بعضها فقد اسمه الخاص وصار يُسمى فقط باسم الجهة التي يُسيطر عليها ويظهر بطشه فيها. فمن ذلك أن إله أدفو المحلي كان يُذكر باسم «إله إدفو» وإلهة الكاب كانت تُدعى «سيدة الكاب».

أسماء بعض الآلهة

على أنه مما لاريب فيه أن العادة جرت بأن يُسمى كل إله محلي باسم خاص؛ فكان إله منفيس مثلًا يُدعى «فَتَّاح»، وإله مقاطعة الشلال القريبة من الفيلة اسمه «خُنُم»، وإله «امْبُص» القريبة من تَقَادة «بالوجه القبلي» اسمه «سُوتِخ» أو «سِت»، وإله «قِفْطْ» الواقعة على طريق القوافل من النيل إلى البحر الأحمر اسمه «مِنْ»، ومعبود الفيوم في إقليم بحيرة موريس اسمه «سُبْك».

أسماء بعض الإلهات

ومن بين الإلهات نذكر الإلهة «حَاتْحُور» سيدة دندره، والمعبودة «نَيْت» إلهة سايس (صالحجر) في الدلتا، و«سِخْمِتْ» إلهة إحدى ضواحي منف. وهذا قليل من كثير، إذ من المستحيل أن نعدد كل المعبودات المحلية؛ لأن هذا يحتم علينا أن نسرد أسماء كل الأماكن المصرية القديمة، وهذا يبعدنا كثيرًا عن غرضنا الأصلي.

مدلول أسماء الآلهة

أما مدلول أسماء هذه الآلهة فإنه يصعب علينا جدًّا أن نقرر عنه شيئًا باليقين، اللهم إلاّ أسماء قليلة مثل لفظة «سِخْمتْ» (إلهة منف) التي نعلم أن معناها «القوية». والحقيقة أن أصول هذه الكلمات ليست معلومة لدينا في أغلب الأحوال؛ فإذا قيل مثلًا أن اسم الإله «فتاح» فيه علاقة لفظية بالكلمة العِبرية «بتاح» التي معناها يفتح أو ينحت، وأنه يصح لهذا الاعتبار أن

يُسمى «بالناحت» أو «الصانع»، أو إذا فسر اسم المعبود حوريس على حسب اللغة المصرية القديمة بمعنى «الواحد العالي أو الواحد السماوي»، فإن كل ذلك لا يرتكز على أساس متين ولا يخرج عن دائرة الظن والتخمين؛ يُضاف إلى ذلك أنه كان لعلماء اللاهوت عند المصريين ولع بالانكباب على درس أصول هذه الكلمات، فتلاعبوا بألفاظها حتى تحايلوا على تفسير أسماء الآلهة ووضع صفات لها؛ فمثلًا لفظة «أمون» التي كانت تُطلق على معبود الدولة الحديثة فسروها «بالواحد الخفي» أو «الواحد السري» باعتبار أن تلك اللفظة من فعل «أمن» في الغة المصرية القديمة الذي معناه «يختفي». وروى بْلُوتَارْخْ المؤرخ اليوناني في كتابه دي أسيد «**De Iside**» إن لفظة أمون على ما جاء في مَنِيتُون معناها «ما خفي» أو «الخفاء». ومما لا جدال فيه أن علماء اللاهوت كان في ذهنهم إله يدينون به في السر، ويُسمى عندهم الإله المكتوم اسمه؛ غير أن المعنى الأصلي لكلمة «أمون» لا يُمكن بأي حال من الأحوال أن يكون كما فسره هؤلاء العلماء.

نفوذ المعبود المحلي

وكانت مهمة كل معبود من هذه المعبودات المحلية تنحصر في الأصل في حماية بلدته، فلا سلطان له خارج حدودها. بيد أننا نجد أن طائفة كبيرة من هذه

المعبودات كان لها مزايا خاصة ما لبثت أن مدت نفوذها وراء مناطقها، مما يدل على انتشار الآراء الدينية في تلك العصور السحيقة. مثال ذلك أن المعبود أمون إله طيبة كان أيضًا إله الخصب والنماء في مصر كلها، والمعبود «من» إله «قِفْط» الذي يُمثَّل عند اليونان الأقدمين بالإله «بان» كان من مُميزاته حماية أسراب الماشية والسُبل والقوافل وبخاصة طريق الصحراء الذي يبتدئ من «قفط» مُخترقًا الجبال والصحاري إلى البحر الأحمر. وكذلك المعبودة «سخْمت» العظيمة إلهة منف كانت تُعتبر إلهة الحرب المُخيفة التي تنكل بالعدو وتسحقه. وكذلك الإلهة حاتحور معبودة «دندرة» كانت تُمثل إلهة الحب والفرح. وفي كثير من الأحيان عُزِيت لهذه الآلهة المحلية علاقات بقوى الطبيعة وبخاصة الأجرام السماوية؛ فالمعبود تحوت إله الأشمونين «هِرُمُوبُولِيس» وهو الذي مثله اليونان بمعبودهم «هِرْمِيس» كان يُعتبر إله القمر وقد ظهر بهذا المظهر في متون الأهرام. وكان الاعتقاد السائد عند الأقدمين أنه هو الذي حدد فصول السنة ووضع نظام الطبيعة، ولهذا اعتبر أيضًا مُخترِع الكتابة واللغة وخالق المواقيت والمقاييس وإله العلم والعرفان.

الآلهة التي تُنسب

وأعظم من ذلك أنهُ كان بين معبودات قدماء المصريين

إلى الشمس

المحلية عدد وفير يُنتسب إلى أعظم الأجرام السماوية إضاءة وتعني بذلك كوكب الشمس، فكان كل من هذه المعبودات في الأزمنة الأولى يُمثل الشمس في شكل خاص بهِ؛ ولكن تأثير ذلك في تطور الديانة المصرية له شأن آخر في حالة المعبود «حور» أو «حوريس» الذي يُعد من أعم الآلهة عبادة وأهمها من الوجهة القومية المصرية؛ إذ بالرغم من أنهُ كان الإله المحلي لكثير من المدن كان يعبد في طول البلاد وعرضها ممثلًا إله الشمس الأعظم؛ وسنعود قريبًا إلى الكلام في هذا الموضوع بإسهاب.

الملائكة والشياطين

وكان هُناك عدا ما ذكرنا من الآلهة المحلية العظام عدد ليس بالقليل من الآلهة الصغار ومن الملائكة والشياطين، الذين كانوا أقل بطشًا. ولما كان في وسعهم أن ينفعوا القوم أو يلحقوا بهم الأذى في أجوال خاصة كان الناس يسعون لاستجلاب رضاهم وعطفهم. فمثلًا كان يُدعى بعض الإلهات الشفيقات اللاتي كن يُمددن يد المساعدة للنساء عند المخاض؛ إذ كان القوم يعتقدون أن في أيديهن تسهيل الوضع أو تعسيره؛ كذلك كانوا يعتقدون وجود ملائكة تأتي للطفل الوليد في مهده لتقرر مصيره. وكان المعبود الصغير «بس» الغريب الخَلق من أكثر هذه المعبودات محبة؛ فكان

القـوم يعتقـدون أنـه أتـى إلى مصـر مـن بـلاد «بُنـتْ» (الصومال) بلاد الروائح العطرية؛ ولذلك كانت ميزته حماية الروائح الزكية وألوان زينة الوجه والمرايا وكل ما يلزم للتأنق في الزي.

مظاهر الآلهة المحلية

وإذ كان للإله المحلي قوة تفوق قوة البشر كان له تأثير محـدود في حيـاة بـني الإنسـان ويقـدمون لـه في مقابلـة العطايا والقرابين. وكان هذا الإله في اعتقاد القوم يظهر لعباده في شكل واضح جلي، فكما أن روح الإنسان تأوي جسده الظاهر كذلك يتخذ الإله له مأوى خاصًا يكـون مظهـرًا لـه. وقـد جـرت العـادة أن يتخـذ الإلـه سكنًا له الأحجار والأشجار والعمد والحيوانات، فمثلًا إله مدينة «دودو» التي عُرِفَتْ باسم أبي صير فيما بعد كـان يأوى قطعـة خشـب سـاذجة؛ وكـذلك إلـه الطـرق «من» في مدينة قِفْط كان يظهر إما على شكل عصا أو على شكل تل من الأحجار. والأغلب أن هذا التل كـان يُوضـع بجانـب الطريـق ليضـيف إليـه سـابل حجـرًا جديـدًا كمـا نُشـاهد عنـد البـدو الآن. وكانـت المعبـودة «حاتور» تسكن شجرة الجميز، كما كانت إلهة أخرى مجهولـة الاسـم تأوى إلى شـجرة الزيتـون. علـى أنـه كـان أكثر شيوعًا مما ذكـر أن يتصـور الإنسـان الإله في هيئة حيوان، يـدلك على ذلـك أن إلـه المـاء «سبك» الـذي

كان يُعبد في جهة الفيوم كان يظهر على شكل تمساح؛ وظهر معبود منديس لعباده في شكل جدي، وظهر «ختم» معبود مقاطعة الشلال في شكل تيْسٍ، وظهر «آمون» معبود طيبة في شكل كبش بقرون ملتوية تغطي أذنيه؛ وتجلى «وبوات» إله أسيوط في شكل ذئب. وكان «تحوت» معبود هرموبوليس (الأشمونين) يظهر في هيئة قرد أو أبو قردان؛ وكثير من الآلهة كان يظهر في هيئة باشق كإله الشمس «حوريس» وإله القمر «خنس» معبود طيبة، وإله الحرب «منتو» الذي كان يُعبد في طيبة وفي «هرمنتس»؛

مظاهر الإلهات المحلية

أما الإلهات المختلفة فكن يظهرن في هيئة القطط واللبوات والعقبان والحيات. فكانت «سخمت» إلهة منف و«بخت» إلهة بني حسن تظهر كل منهما في شكل لبؤة. كما كانت إلهة بوبسطة تظهر في ثوب قطة و «حاتحور» إلهة دندرة في شكل بقرة، وكانت «موت» إلهة طيبة و«تحبت» إلهة الكاب تُمثلان في شكل أُنثى العقاب. أما «بوتو» معبودة الوجه البحري فاتخذت الحية شكلًا لها وإن تقمصت الفأر أحيانًا. ومما سبق يتضح جليًا أن الموضوع الذي سنتناول البحث فيه هو موضوع ديانة وثنية تامة النمو والتطور.

التشابه بين آلهة

وقد يتبادر للذهن لأول وهلة أن هذه التخيلات

قدماء المصريين والساميين واليونان

الساذجة عن الآلهة غريبة في بابها ولا تليق بأمة متحضرة، بل وقد وقع بالفعل أن اليونان والرومان لما اختلطوا بالمصريين لأول مرة هزوا رءوسهم استهزاءً بهذه العقائد والتخيلات، غير أن أشباه هذه التخيلات لم تعدم إضرابها بين بعض الأمم المتمدينة الأُخرى كالساميين واليونان الأقدمين أنفسهم؛ فإن الساميين كما نعلم كانوا يعبدون الآلهة في شكل الأشجار والأحجار والعمد والحيوانات؛ كذلك نعرف عن اليونان أن «هرميس» إله المراعي والطُرق كان يظهر عندهم في شكل كومة من الاحجار، كما كان يظهر مثيله المعبود «من» عند قدماء المصريين. وكان الإله «وبوات» يتجلى في شكل ذئب والإله «ارتميس» في شكل «دب» والإلهة «هيرا» زوج الإله «زوس» في ثوب بقرة. وإذا علمنا أن الطائر المُقدس للمعبود «زوس» هو النسر، وللمعبودة «أَفْرُدَيْتِي» هو اليمامة، وللإلهة «أثينا» هو «البومة»، فإن ذلك لا شك يدل على أن هذه المعبودات في الأصل تتجلى لعُبَّادها في صور هذه الحيوانات.

الإله في شكل إنسان برأس حيوان

وقد خطت هذه الوثنية خطوة إلى الأمام في عهد الأُسرة الثانية، إذ بدأ قدماء المصريين يُمثلون معبوداتهم في شكل إنسان؛ فقد أخذ الإله يظهر بجسم إنسان

ورأس الحيوان الذي يأوى إليه، وكان يرتدي الملابس التي كان يرتديها المصريون أنفسهم وهي عبارة عن قميص قصير مُدلى خلفه ذيل حيوان أسوة بأزياء الملوك الأول، وكذلك كان يحمل عنوانًا على قوته سيفًا وصولجانًا، أما الآلهة فكانت تحمل في يدها ساقًا طويلًا من نبات البردي.

مهارة المصريين في صُنع التماثيل

وقد كان لهذا الانقلاب أثر ظاهر في تلك الوثنية القديمة، فتحولت الأوتاد المُقدسة إلى أصنام ذات صور بشرية وذلك بجعل الوتد يظهر في شكل جسم مزمل بالأربطة. ولا يبعد أن تكون صورة المعبود «من» نشأت من هذه الفكرة؛ بل ربما صح ذلك أيضًا في «فتاح» إله منف. وقد حدث مثل ذلك الانقلاب حتى في الآلهة التي كانت من بادئ أمرها تظهر في شكل حيوانات، غير أن رأس المعبود بدلًا من أن تكون رأس إنسان بقيت رأس الحيوان المُقدس لدى هذا الإله؛ فكان «سبك» يُمثل إنسان رأسه رأس تمساح، والإله «تحوت» يُمثل بجسم إنسان ورأس (أبو قردان)، ومعبودات أُخرى كانت تُمثل بجسم إنسان ورأس باشق. وكانت المعبودة «سخمت» تظهر بجسم امرأة ورأس لبؤة، والإلهة «حقت» بجسم امرأة ورأس ضفدعة. ومهما ظهرت أمامنا هذه الأشكال بمظهر

السخافة وخرجت في نظرنا عن حد المعقول، فإن الإنسان لا بُد أن يعترف بأن أهل الفن من المصريين أظهروا في صنع التماثيل وعمل النقوش البارزة كفاءة عجيبة ومقدرة نادرة في تركيب رأس الحيوان على جسم الإنسان. ومن وقتئذ لم يتزحزح المصريون عن معتقداتهم القديمة في معبوداتهم قيد شعرة، بل ظلوا يُمثلونها في أشكالها الوثنية إلى أنت امحت من العالم جملة.

العجل أبيس

وفضلًا عن هذه الآلهة المحلية التي كان يتخيلها المصريون في ثوب حيوانات، كانت هُناك حيوانات أُخرى تُعبد على أنها آلهة في ذاتها، ولها أماكن خاصة تُقدس فيها، وتفوقت في ذلك الحيوانات التي كانت تسترعى إعجاب الفلاح المصري بما لها من القوة التي تفوق قوة البشر، نختص بالذكر منها اثنين أخذ الأقدمون يعبدونهما من أقدم أزمانهم وظلوا كذلك إلى آخر عهدهم؛ ونعني بذلك العجل «منفيس» المُقدس إله هليوبوليس والعجل «أبيس» معبود منف. وقد روى المصريون أن ثانيهما (العجل أبيس) نشأ من قبضة نور نزلت من السماء في رحم بقرة، فحملتهُ ثم وضعتهُ ولم تحمل بعده قط. ومن مُميزات هذا العجل أنهُ أسود اللون مشوب بنقط بيضاء، وعلى جبهته مثلث

أبيض، وفي جانبه الأيمن هلال، وكان يغطي ظهره عادة بـرداء أحمـر. وقـد جـد الكهنـة بتخـيلاتهم وأبحـاثهم اللاهوتيـة لوضـع رابطـة بـين هـذا العجـل المُبجـل وبـين «فتاح» معبود مدينة منف المحلي. فقالوا أن العجل هو ابن فتاح، أو كما كانوا يعبرون عنهُ بلغتهم الدينية أنه مُكرر حي من الإِله فتاح. على أنني في كل ما تقدم قد آثـرت البحـث في الظـواهر الفرديـة في الديانـة المصـرية القديمة، وبينت أن تلك الديانة كانت قائمة في الأصل على وجود معبود لكل جهة هو الساهر على حمايتها. بيد أنه كان عند المصريين بعض عقائد دينية مُشتركة بين جميع الشعب، فهي إِرث القوم العقلي يشتركون فيهـا كمـا يشـترك كـل مصـري في اللغـة الـتي كـانوا يتخاطبون بها. فمن ذلك أنه بالرغم من كل الخلافات السياسية، كان الشعب المصري على بكرة أبيه يعتقد وجود كائنات فوق البشر تتجلى في قوى الطبيعة.

الإله حوريس في صورة باشق

ومن بين هذه الآلهة «حوريس» إله الشمس، فقد كان المصريون أجمعون يتخيلونه في صورة باشق له ريش زاه يُحلق به في السماء، يفيض من نوره على العالم. غير أن هـذا المعبـود السـماوي كـان لـه في بعـض الجهـات علاقـات وروابـط خاصـة تربطـه بحيـاة أهلهـا. فكـان في هذه الأحوال يُعزي إليه حماية طائفة صغيرة من الناس،

أو بعبارة أُخرى كان يُعتبر الإله المحلي لتلك الجهة. ومن هنا أصبح حوريس الذي كان في الأصل يسكن الأفق فحسب، الإله المحلي لمدن مُتنوعة.

الإله سبك

وكذلك «سبك» إله الماء، فقد كان في بادئ الأمر معروفًا في طول البلاد وعرضها بأنه شيطان يقطن الماء ويظهر للناس في ثوب تمساح، ولكن على مر الأيام اكتسب احترامًا خاصًا في بعض الجهات، فأصبح الإله المحلي في المدن التي تتوقف سعادتها وشقوتها على الماء كإقليم الفيوم وجُزر الجبلين «أُمْبُص» في الوجه القبلي، وكمدينة «خنو» الواقعة على مقربة من دوامات السلسلة الحالية. وبهذه الكيفيةً ابحت قوى الطبيعة المُختلفة آلهة محلية في كثير من الأحوال، وصار لها احترام خاص.

أسباب عبادة الإله الواحد في جهات مُختلفة

ومما سبق يتضح كيف أن الإله الواحد كان يُعبد في جملة مدن مختلفة، غير أن هذه الحقيقة يُمكن أن تُعلل كذلك بالهجرة التي حدثت في العصور القديمة جدًا. ولفهم ذلك نتخيل أن سكان بيئة خاصة هجروا منازلهم واتخذوا لهم موطنًا آخر في إقليم جديد. فمن المُحقق أنهم يحملون معهم إلههم المحلي، ويشيدون له معبدًا في مأواهم الجديد. يُضاف إلى ذلك أن سكان بيئة خاصة أو بيئات كانوا يُلاحظون أن إلهًا مُعينًا يحمي

ذمار إقليمه، ويُدافع عنه بيد من حديد، ويغدق عليه من نعمائه، ويأتي بالمعجزات تلو المعجزات، فيعقدون الخناصر على حج هذا المعبود العظيم، ويقيمون له معبدًا جديدًا في بلدتهم، وينصبون تمثاله فيه، ويُقدمون له القرابين، ليفيض كذلك عليهم من نعمائه وخيراته العظيمة. وبهذه الطريقة أصبحت الآلهة تسكن مُدنًا لم تكن موطنها من قبل، فتستحوذ لها على مكان بجانب إله الإقليم المحلي، وبذلك يصير لها أتباع جُدد يعبدونها، وقد تصبح أحيانًا حماة وحراسًا لوطنها الجديد.

كذلك إذا عاش سُكان إقليم من الأقاليم مع جيرانهم في سلام وأمان تدور بينهم علائق الود والمصافاة، فإن كلا من إلهي الأقليمين تكون له منزلة واحترام عند جيرانه من أهل الإقليم الآخر. وكانت الآلهة كبني الإنسان يتزاورون في أيام خاصة، بل أنه كان يُوجد بمعبد المدينة مقصورة خاصة للمعبودات الأجنبية تُعبد فيها على حسب طقوسها وروسمها الخاصة. ومن ذلك يتضح أن معبود الجهة، وإن كان صاحب المكانة الأُولى في نفوس أهل إقليمه، لم يكن المعبود الوحيد الذي يُقدس في صقعه. بل كانت الآلهة الأُخرى تُوضع بجانبه (بصفة ضيفان له) لتُعبد، وتُقدم لها القرابين،

ويضرع إليها الأهالي.

الثالوث عند قدماء المصريين

وكذلك كانت تنتشر عبادة بعض الآلهة بانضمام بعض الأقاليم الصغيرة إلى بعض لتأليف وحدة كبيرة، فإن آلهة تلك الأقاليم تصبح بطبيعة الحال محور التعبد في المجتمع الجديد الذي يتألف من هذه الوحدات المختلفة. وقد عمد الكهنة من أول الأمر إلى إيجاد نظام لترتيب المعبودات المُختلفة التي كانت تستوطن أي مدينة بهذه الطريقة، ووضع كل منها في المرتبة التي تليق به. ولأسباب لا تزال سرًا غامضًا لدينا جعلوا هذه الآلهة فئات، كل فئة تتكون من ثالوث أو (ثلاثة آلهة). وقد كانت الطريقة المُتبعة عادة في هذا التقسيم أن يعين الإله الأكبر، ثم تُضاف إليه إلهة زوجة له، ويكون لهذين ثالث هو ولدهما. ففي طيبة مثلًا كان عظيم الآلهة المعبود آمون ومعه زوجته الإلهة «موت» وابنهما إله القمر «خُنْس»، وكذلك كان تثليث منف يتألف من «فتاح» الإله الأعظم، وزوجته «سخمت»، وابنهما «نُفِرْتُمْ». وفي جهات قاصية أُخرى كالفنتين (أسوان) كان للمعبود «خنم» إله الشلال زوجان بدلًا من زوجة وابن، وهما «سانت» و«عنقت».

شهرة المعبود شهر المدينة

ومما لا شك فيه أن رواج عقيدة ما عن إله خاص من الآلهة المحلية كانت تكسب هذا المعبود في كثير من

موقوفة على التي يُعبد فيها

الأحوال شهرة دينية أكثر من غيره. غير أن السبب الأعظم في تلك الشهرة كان يرجع إلى ما للمدينة أو الجهة من المنزلة السياسية. فإذا حدث مثلًا أن مدينة صغيرة أصبحت صاحبة السلطان على إقليم شاسع، فإن إله تلك المدينة يمتد نفوذه حتى يصير إله ذلك الإقليم وحاميه، فيُعبد في معابده مع الآلهة المحلية.

الملك خليفة الإله في الأرض

ولما تأسست مملكتان عظيمتان في الوجه القبلي والبحري، صار الإله المحلي للمدينة التي وفد منها الملك واتخذها مقرًا لمُلكه مُفضلًا على سائر الآلهة؛ ثم رفع إلى مرتبة عُليا فصار إله المملكة كلها وحاميها. فأصبح «حوريس» معبود «بهدت» إله الوجه البحري، و«ست» معبود «أمبص» إله الوجه القبلي.

وكان الملوك يعتبرون خلفاء هذه المعبودات في الأرض مُتقمصين أرواحهم؛ لذلك كان الملك يُدعى بالاختصار حوريس أو ست.

ولما قامت الحرب بين القطرين، الوجه القبلي والبحري، وظلت مستعرة سنين عدة، كان القوم يعتقدون أن «حوريس» و«ست» اشتركا في الشجار، وانجلت المعركة بانتصار «حوريس» على «ست»، وهكذا كان مصير الشعب موقوفًا على مصير الآلهة.

النضال بين حوريس وست

وقد انمحت آثار تلك الحروب الأولى من أذهان القوم في العصور المُتأخرة؛ غير أن الناس كانوا لا يزالون يذكرون النضال الذي قام بين «حوريس» و«ست»؛ بل أن الكهنة أخذوا يبثون في هذه الخرافة معنى عميقًا. فقالوا أن «حوريس» إله الشمس الساطع أورى نار حرب مستمرة على «ست» إله الظلام الحالك، فكان حوريس يُهزَم كل غروب، ولكنه يشرق في الصباح ثانية في شكل جديد ويُنازل عدوه كرَّة أُخرى.

الهنابوتو وتحبت

ولما اتحدت مصر وصارت دولة واحدة تحت حُكم ملك واحد لأول مرة في التاريخ، كان فرعون يُعتبر المُمثل للآلهين في الأرض؛ أي أنه هو «حوريس» و«ست» في شخص واحد؛ أو بعبارة أُخرى (إذ هزم النصف الشمالي من المملكة النصف الجنوبي) هو «حوريس» الواقف فوق إله «أميص» أي الصعيد. وقد مثل الدور بعينه فيما بعد حينما استمرت نار الحرب للمرة الثانية بين المصريين فاشترك في النزاع الهتا مدينة «بوتو» حاضرة الشمال ومدينة «الكاب» حاضرة الجنوب. فكانت آلهة «بوتو» تظهر في ثوب حية، وتُعبد في كل الدلتا؛ ومعبودة الكاب تظهر في شكل رخمة وتُعبد في جميع الوجه القبلي. ولما اتحد

القطران للمرة الثانية أصبحت هاتان الآلهتان همكا الحارستين الخاصتين لفرعون مصر، وبقيتا كذلك إلى ما شاء الله. ومن ذلك يظهر أن جزءًا من تاريخ مصر السياسي قد ترك له منذ أقدم العصور أثرًا بينًا في معتقدات القوم الدينية.

وقد لعب الإله «أُزريس» دورًا خاصًا بين الآلهة المصرية المحلية لم توفق البحوث العلمية بعدُ إلى تفسيره. كان أُزريس هذا في بادئ الأمر يقطن الدلتا، ويُحتمل أنه كان في بلدة بوصير، ومن ثم انتشرت عبادته في طول البلاد وعرضها.

قبر أُزريس

ومن أهم المُدن التي كان يُعبد فيها العرابة المدفونة (على مقربة من البلينة)، وهُنا أُقيم له قبر في العصور المُتأخرة بين قبور الملوك الأقدمين. وقد تواترت عن هذا الإله أُسطورة من أحب الأساطير التي تُروى عن الآلهة المصرية؛ والإشارة إليها مُتعددة في أقدم المتون المصرية التي بين أيدينا، ونعني بذلك متون الأهرام.

قصة أُزريس نقلًا عن بلوتارخ

ومما يُؤسف له أنه لم تصل إلينا من الأقدمين قصة مُتصلة عن هذه الخُرافة، ولذلك ترانا مُضطرين إلى قصها كما وصلت إلينا من العصور المُتأخرة بشكلها المُحرف نقلًا عن بْلُوتَارْخْ:

تعاليم أُزريس يُقال أنه كان لإلهة السماء «ريه» (وهي عند المصريين نُوت) وإله الأرض كرونس (وهو عند المصريين جِبْ) أربعة أولاد وهو الإلهان أُزريس وست (والأخير عند اليونان تِيفون) والآلهتان إزيس ونفتيس. وقد تربع أزريس على عرش مصر، وأسعد أهلها، فسن لرعاياه القوانين العادلة، وعلمهم احترام الآلهة، ونشر بينهم فن الزراعة، ثم طاف في أنحاء البلاد رسولًا للمدنية غير مُعول في ذلك على القوة، بل على جذب قلوب القوم إليه بالإغراء والتعلم تارة، وبكل أنواع الغناء والموسيقى تارة أُخرى. لذلك كان يعتقد اليونان الأقدمون أنه دايونيوس.

تآمر ست على أخيه أزريس ولما عاد من طوافه تآمر عليه أخوه ست ومعه ٧٢ شخصًا آخرون، وقد حصل سرًا على مقاس جسم أُزريس، وصنع حسب هذا المقاس صندوقًا جميلًا مُحلى بأبهى أنواع الزينة، وأحضره معه في وليمة أعدها لأخيه. وفي أثناء الوليمة استرعى جمال هذا الصندوق أنظار المدعوين، فوعد ست مازحًا أن يعطي هذا الصندوق لمن يتفق مقاسه معه تمامًا إذا اضطجع فيه. فجرب كل الحاضرين (وكانوا على علم بالمكيدة)، فلم يتفق الصندوق مع واحد منهم. وفي النهاية اضطجع فيه أُزريس، فانطبق عليه تمام الانطباق. وإذ ذاك أسرع

المُتآمرون، وسمروا الصندوق من الخارج، وصبّوا فوقه رصاصًا ذائبًا، وحملوه إلى النهر، ودفعوا به إلى البحر عن طريق الفرع التانيتي للنيل.

إزيس تبحث عن جثة أُزريس

ولما علمت إزيس بموت زوجها وأخيها جدت في البحث عن جثته، وبعد جهد ونصب أخبرها بعض الصبية، أن الصندوق أُلقي به في النيل، فسار مع التيار إلى البحر، ثم وصل إلى مسامعها كذلك أن الصندوق رسا على الشاطئ بالقرب من «بِبْلُصْ» (في سورية)، وهُناك نمت حوله شجرة فخمة واشتملت عليه في ساقها. ولما رأى ملك تلك الناحية هذه الشجرة اجتثها من فوق الأرض وفي جوفها الصندوق، ثم اتخذها عمودًا يرفع سقف بيته، فلما سمعت إزيس بذلك ولت وجهها شطر بِبْلُصْ، حيث اتخذتها الملكة مربية لأولادها في قصرها. وعلى مر الأيام أظهرت الآلهة حقيقة أمرها للملكة، وطلبت إليها هذا العمود، فاستلته من تحت السقف، وحملته معها في سفينة، وقد بقي مُغلقًا حتى وصلت مصر، ووجدت نفسها في مأمن لا يرقبها أحد ففتحته، ثم وضعت وجهها على وجهِ الميت وقبلته بدموع حارة.

ست يُمزق الجثة

ثم ذهبت بعد ذلك لابنها حوريس الذي كان يتربى في «بوتو»، وهُنالك أخفت الصندوق الذي يشتمل جثة

أُزريس. وبينما كان «ست» ذات ليلة يصطاد في ضوء القمر عثر على الصندوق فعرف الجثة، ومزقها أربع عشرة قطعة، وبعثرها في الجهات القاصية. ولم يكد ذلك النبأ يصل إلى مسامع إزيس حتى أخذت تبحث عن تلك الأجزاء، ولهذا شرعت تجوب منافع الدلتا في زورق من البردي.

إزيس تدفن الجثة ثانية

وكانت كلما عثرت على شلو من أشلاء أُزريس دفنتهُ حيث وجدته. وهذا هو السر في تعدد قبور أُزريس في مصر.

حوريس ينتقم لأبيه أُزريس

ولما ترعرع حوريس واشتد ساعده، أخذ يتأهب بمساعدة أُمهِ للانتقام من ست قاتل أبيه، وقد استمرت نار الحرب مشتعلة بينهما أيامًا عِدة، وأسفرت المعركة عن فوز حوريس على خصمه ست. وقد كُبل ست وسيِقَ إلى إزيس، فلم تمسه بسوء، وأطلقت سراحه، فأهاج ذلك حنق حوريس، وفي ثورة غضبه موق تاج إزيس من رأسها، غير أن تحوت «هرميس» وضع بدلًا منه رأس بقرة. تلك هي بالاختصار مشتملات هذه الأسطورة كما وصلت إلينا نقلا عن بلوتارخ المؤرخ اليوناني.

وسأعود في مقام آخر إلى ذكر أُزريس، وتاريخ حياته،

وأبحث فيهما بإمعان ودقة.

شكل الأرض عند المصريين

كانت آراء المصريين عن الكون كآراء غيرهم من الأمم، وخاصة من السماوات وأجرامها، ذات علاقة كبيرة بمعتقداتهم الدينية، غير أنهم ربما كانوا أقل مُغَالاة في ذلك عن أهل بابل الأقدمين. فكانت الصورة التي يرسمها المصريون للدلالة على الأرض مما يبرهن أن الأفق الجغرافي عندهم كان محدودًا جدًا، فكانت مصر في نظر المصري هي العالم بأسره، فهي في عينه سطح بيضوي مستطيل الشكل يخترقه طولًا من الشمال إلى الجنوب نهر متسع هو النيل، وعلى حدوده جبال شامخة هي هضاب الصحراء التي تكتنف مصر، وعلى هذه الجبال ترتكز السماوات.

شكل السموات

وكان المصري يعتقد أن هذه السماوات على شكل طبق مفرطح تتدلى منه النجوم الثواقب كأَنها مصابيح مُعلقة. وكذلك كان يرى بعضهم أن السماوات متكئة على أربعة عمد منصوبة في أركان الأرض الأربعة. واعتقد قوم أن السماوات فطرت على شكل الأرض تمامًا: أي أنها كذلك يخترقها نهر تخرج منه ترع عدة.

العالم السُفلي

وكانوا يزعمون أيضًا أن تحت الأرض عالمًا سُفليًا آخر (دوات) مركبًا، لا يختلف في تكوينه عن الأرض أو السماوات ويسكنه الموتى. وكان للمصريين طريقة

عجيبة أخرى في تصور شكل السماء: وذلك أنهم كانوا يتخيلونها على شكل بقرة عظيمة مُثَبتة في مكانها بعدة آلهة أخرى صغيرة، ومحمولة إلى أعلى بالإله «شو» ومن بطنها تتدلى النجوم. وكانوا يعتقدون أن إله الشمس يسبح نهارًا على ظهر هذه البقرة في زورق خاص له.

نظريات خلق العالم

ومن معتقداتهم أن العالم والآلهة، وبني الإنسان، لم يوجدوا من بادئ الأمر، بل هم مخلوقات. ولكل طائفة من الكهنة نظرية خاصة في كيفية هذا الخلق تختلف عن غيرها كما اختلفت آراؤهم في شكل العالم نفسه. فكان أكثر الاعتقادات انتشارًا أن الإله المحلي أي معبود المدينة هو أيضًا بادئ السماوات والأرض. فأهل مدينة منف مثلًا اعتقدوا أن معبودهم المحلي الإله «فتاح»، ذلك المصور العظيم، نحت الأرض كما تنحت التماثيل. وكذلك في جهة الفيلة حيث عُبِدَ الإله «خنم» حارس تلك الجهة وحاميها، كان يعتقد الناس أنهُ هو خالق العالم: قبض قبضة من غرين النيل وسوى منها العالم كما يصنع الخزاف الفخار بآلة. وفي مدينة سايس (صاالحجر) كان القوم يعتقدون أن «نيت» إلهة هذه الجهة فطرت العالم كما ينسج الناسج قطعة من القماش. على أن هذه الاعتقادات المحلية في

تكوين العالم لا ينبغي أن نفهمها بشكلها الحرفي، إذ كان بلا مراء للخيال الشعري أثر كبير جدًّا في كثير منها.

نظرية كهنة عين شمس في خلق العالم

أما أعظم هذه الاعتقادات انتشارًا فيحتمل أنهُ أتى من ناحية طائفة كهنة عين شمس. وذلك أنهُ في بادئ الأمر كان يوجد جسم عظيم من الماء يُدعى «نن»، يشتمل على جراثيم الحياة من ذكر وأنثى، ومن هذا الماء فطرت الشمس أي «رع» كما يُسميها المصريون. وكان هذا الماء يشمل كذلك إله الأرض «جب»، وإلهة السماء «نوت» مُتعانقين. وقد بقيتا كذلك حتى فصل بينهما «شو» إله الهواء، فحمل آلهة السماء على ذراعيه إلى الطبقات العلوية.

النيل إله

ومن آلهة المصريين كذلك النيل الذي يهب مصر الحياة ويحفظ كل بني البشر بما يمنحهم من الطعام والغذاء. وكان يُمثل عندهم في شكل ذكر وأنثى في آن واحد فله من الأنثى ثدياها ومن الذكر لحية طويلة تكتنف وجهه. أما لباسه فكان كلباس البحار المصري.

الأجرام السماوية آلهة

على أن المصريين كانوا قبل كل شيء يعتقدون في الوهية الأجرام السماوية. ولا غرو، أفلم يكن من الطبيعي أن الفلاح المصري إذا ألقى بنظره في ليلة قمراء صافية الأديم إلى السماء المُزينة بالنجوم الزاهية

مال إلى الاعتقاد بأن هذا العالم العلوي تسكنه آلهة أيضًا؟ فلا عجب إذن أن يَرى في الجوزاء أجمل الأبراج المصرية إلهًا لهُ؛ وفي نجم الشعري اليمانية آلهة تُسمى «صوبد»، بل لا عجب أن كان يُعتبر الشمس معبودًا يُسيطر على الكون. وقد تنوعت النظريات الخاصة بالشمس (أعظم الأجرام السماوية ضوءًا) عند طوائف الكهنة المُتعددة في البلاد.

أعظمها الشمس

وقد ذكرت آنفًا ما اعتقد أنه الفكرة السائدة عند المصريين عن الشمس: وهي القائلة بأنها صقر (هو الإله حوريس) يُحلق في السماء بريشهِ الساطع. وهناك آراء أُخرى: ففريق رأى أن إله الشمس كان يسبح أثناء النهار على سطح ماء السماء كالبحار المصري ثم ينزل حتمًا عند الغروب إلى العالم السفلي ويستمر هناك في سياحته (ليظهر في اليوم الثاني في خلق جديد). وفريق آخر كانوا يُمثلون إله الشمس في شكل جعران، وهو تمثيل يبدو لأول وهلة مُضحكًا، ولكن لا تلبث أن تزول غرابته. فكما أن الجعران يرى عادة في النهار وهو يدحرج أمامهُ كرة صغيرة تحتوي على بويضاته، كذلك يرى إله الشمس في خلال النهار وهو يدحرج أمامهُ في السماء كرة الشمس، ومع ذلك فإن طائفة أُخرى كانوا يعتقدون أن في كل صباح تنبت من

وسط الماء زهرة زنبق تشتمل على طفل صغير هو إله الشمس جالسًا في نَوْرها.

وقصارى القول أن الصورة التي تسنى لي أن أرسمها أمامكم اليوم عن أقدم شكل للديانة المصرية القديمة على قد ما وصلت إليهِ معلوماتنا هي بلا شك صورة مركبة من عناصر متنوعة جدًّا: فمن جهة رأينا فيها المعبودات المحلية، ومن جهة أُخرى رأينا المعبودات السماوية التي تبعد عن الإنسان بُعدًا سحيقًا لا نهاية لهُ. وسيكون موضوع بحثي التالي الطريقة التي بها مزج علماء اللاهوت بتخيلاتهم الدينية هذين العنصرين وكيف أن هذا الامتزاج أنتج ديانة تكاد تكون جديدة.

المحاضرة الثانية

نمو الديانة المصرية وارتقاؤها

المصري محافظ على العادات

من الحقائق المألوف ذكرها عن قدماء المصريين أنهم كانوا أُمة مُحافظة بدرجة عظيمة، ولا ريب في صحة ذلك، فقد تمسك المصريون أيما تمسك بالعادات والأخلاق التي توارثوها عن أجدادهم الأولين. بيد أنهُ لا يستنتج من ذلك أن المدينة المصرية كانت عقيمة قاحلة، وأنها بقيت راكدة آسنة مدة آلاف السنين، لم تخط إلى الأمام، ولم يدخل عليها أي تغير منذ انبثاق فجر التاريخ. بل الواقع أننا نُشاهد في لغة المصريين وفي كتاباتهم وآدابهم وفي حياتهم السياسية وفنونهم وصناعاتهم تقدمًا محسوسًا مُستمرًا.

نمو مدنيتهم

حقًا إن ذلك لا يُمكن أن يسترعى نظر القارئ غير الجاد، فإنهُ يمر في قراءته على جُملة حقائق غريبة جديدة، ولا يكون تأثيرها الأول فيه إلا أنها كلها مُتشابهة. أما الباحث المُدقق فإنه لا يلبث أن يرى تدريجيًا أن المصريين كسائر أُمم العالم تنمو حياتهم العقلية والنفسية، وتتمشى مع الزمن؛ وأنها في حركة

دائمة لا تركد قط.

ولم تشذ من ذلك إلاّ حالة واحدة بقيت فيها روح المحافظة سائدة على مر الأيام. وذلك أن القوانين التي أخرجت للقوم في عهد فطرتهم بقيت سائدة في البلاد مدة آلاف من السنين؛ ومن ثم نسجت مدنية القوم في نموها على منوال يكاد يكون نفس المنوال الذي نسج عليهِ المصريون الأول في عهد فطرتهم. ويُمثل ذلك جليًّا كتابة القوم وفنونهم الجميلة ومعتقداتهم الدينية.

المحافظة على الديانة

ومما لا مراء فيه أن بعض الآراء الجديدة قد التحمت فيما بعد بالأصل القديم بوجه عام. غير أن الديانة المصرية، التي كانت مُنذ نشأتها نتيجة لعلاقات سياسية خاصة لم يطرأ عليها أي تغيير جوهري، اللهم إلاّ في حادثة واحدة دونها التاريخ لنا وكانت عاقبتها الفشل التام.

يذكر القارئ أنه تألف من الإمارات الصغيرة التي كانت تتكون منها البلاد المصرية في عهد فطرتها مملكتان، الوجه البحري والوجه القبلي. ولم تصر البلاد وحدة سياسية إلا بعد أن أخضعت الأولى الثانية، وأصبحت حاضرة مصر المتحدة إذ ذاك مدينة هليوبوليس (أون). وهذا الاسم معروف لقراء التوراة؛ لأن زوْجة سيدنا يوسف عليه السلام كانت بنت بوتوقيره رئيس كهنة

بلدة (أون) الواقعة على مسافة بضعة أميال من الشمال الشرقي من مدينة القاهرة الحالية.

أتم معبود عين الشمس

وكان «أتمُ» معبودها المحلي ذا علاقة بإله الشمس. والظاهر أنه كان في اعتقاد القوم هو الشمس المُضيئة نفسها، أي «رِع» الذي كانت تتعبد به الناس. وكان يعتبر الإله «الذي يسكن في بيضته (أي الشمس) ويفيض على الكون أشعته من مسكنه السماوي» وهو الذي «يشرق في أفقه ويسبح في نحاسه الأصفر (أي صحيفة السماء)، والذي لا مثيل له بين طائفة الآلهة، والذي يضئ العالم بنوره الساطع».

أصل المسلة

وكان يقيم الأهلون له داخل المعبد عمودًا من الحجر يصلّون عنده ليوصل العبادة إلى الإله الأعظم. ويُحتمل أن هذا العمود كان يُقام في الساحة المكشوفة من المعبد. وعلى مر الأيام أخذ هذا العمود شكلًا مُنتظمًا مُتناسبًا، وعُرِفَ بعد بالمسلة وهي عمود مستدق، قمته على شكل هرم صغير.

وفي حين كان سائر الآلهة السماوية العظام ماضيةً كل في طريقه بمعزل عن الناس أخذ إله الشمس معبود هليوبليس المحلي ينشئ له الروابط ببني الإنسان، وصار يُعبد بوجه خاص، وكان في نظر القوم أعظم الآلهة وأشدها قوة. على أن كهنة هليوبليس لم يكتفوا بإعلان

هذه المناقب، بل أخذوا يبذلون جهدهم في استنباط ما يترتب عليها. وبهذه الطريقة أمكنهم الوصول إلى فكرة عميقة عن كُنه الإله. فاهتدوا أولًا إلى أن الشمس إله واحد فقط هو «رع»، وأن إله الشمس القديم أي حوريس الذي كان يُحلق في السماء على هيئة باشق هو في الحقيقة رع، وأن الفرق بين الاثنين في الاسم فقط. لذلك أطلق الكهنة على حوريس اسم «رع حوريس الذي يستوي على الأُفق». وظهر هذا التركيب أيضًا في صورة هذا المعبود، فترى فيها حوريس وله رأس صقر يحمل عليها قرص الشمس.

أسماؤه المختلفة

كذلك قيل أن «اتم» المعبود المحلي القديم لمدينة هليوبوليس هو إله الشمس «رع حوريس»، واعتبر أيضًا في جوهرة نفس الإله رع لا فرق بينهما إلا في الرسم. يُضاف إلى ذلك «خُبر رع» إله الشمس القديم والذي كان يصور في شكل جُعَل، فإنه مثال آخر لهذا التطور. والحقيقة أن كل هذه الآلهة كانت تُعتبر مظاهر خاصة لمعبود واحد، أو بعبارة أخرى أسماء لإله أحد فرد صمد .

أسماؤه في سياحته اليومية

وهذا الرأي يتفق تمام الاتفاق مع الوظائف الخاصة التي كانت تُنسب لكل إله من آلهة الشمس هذه. فمثلًا كان «رع حوريس» أو «خبر رع» يُعتبر أنه الشمس

وقت الغروب و«اتم» الشمس وقت الشروق. فإنَ الأهلين كانوا يعتقدون أن الشمس تخترق السموات في فُلك فتقضي سياحتها في أول النهار في المركب «منزت» الجميلة، وتقضي رحلة المساء في الزورق «مسخت» الذي كان يسبح بها وراء الأُفق الغربي إلى جبال «منو» الخرافية. ومُنذ ذلك العهد تحولت الخرافات العدة التي نسجها خيال الجهات المختلفة عن حركة الشمس اليومية إلى الإله الأحد «إله الشمس» معبود هليوبوليس؛ ومن ثم نشأت متناقضات بعضها من الغرابة بمكان. ولم يبذل علماء اللاهوت أي مجهود في التوفيق بينها. ومما لا شك فيه أن عدد الخرافات التي تُعزى إلى الشمس كان وفيرًا جدًا، إذ الإشارة إليها لا يكاد يخلو منها متن ديني، غير أنه للأسف لم يصل إلينا منها إلا جزء ضئيل جدًا.

أسطورة عن إله الشمس

وسنفصل القول في إحدى تلك الخرافات التي تعزي إلى الشمس حتى يتصور القارئ صورة واضحة عن أمثال هذه الخرافات المصرية القديمة وماهيتها.

وكان «رع» إله الشمس يمثَّل في هذه الخرافة في شكل ملك له السيطرة التامة على الآلهة وبني البشر جميعًا. وكان كأُمراء الأرض يتربع على أريكة ملكه ويُناجي رعاياه ويُشاطر بني الإنسان في أفراحهم وأتراحهم.

بيد أنه حُرم بنوع خاص قوة الشباب الأبدية، فكان يطعن في السن بمرور الأيام، وأخذ الناس يعصون أمره لشيخوخته كما يفعل المصريون إذا سلط عليهم ملك اشتعل منه الرأس شيبًا. هذه كانت مكانة الإله رع في بداية الخرافة التي سنقصها نقلًا عن الآثار:

كان جلالته (الإله) طاعنا في السن: عظامه من فضة ولحمه من ذهب وشعره من اللازورد الخالص. ولكن الناس تآمروا عليه ففطن جلالته لأغراض الخلق، وقال مُخاطبًا أتباعه: آتوني عيني (أي المعبودة حاتحور) والمعبود «شو» والمعبودة «تفنت» وكل الآباء والأمهات المُقدسة الذين كانوا بصحبتي حينما كنت لا أزال في المحيط الأزلي «نن» وآتوني أيضًا بالإله «نن» ذاته ومعه كل خدمه. وليكن حضورهم إلى هنا خفية حتى لا يراهم بنو الإنسان. تعالوا معهم إلى القصر لكي نأخذ بنصيحتهم؛ وتلبية لأمره ذهبت هذه الآلهة إلى حضرته وجثوا أمامه حتى لطمت جباههم الأرض.

ثم قالوا لجلالته: تكلم حتى نسمع. فقال «رع» مخاطبًا «نن»: أنت يا أكبر الآلهة سنًّا، يا من منحتني الوجود، وأنتم يا أجدادي المُقدسين، لقد رأيتم كيف أن هؤلاء الخلق الذين نبتوا من عيني قد ثاروا عليّ. فالآن أُريد أن أسترشد برأيكم في أمرهم لأني لا أود أن أذبحهم

حتى اسمع نصيحتكم في هذا الأمر.

فأجابه جلالة الإله «نن»: يا بُنَيّ رع، أنت أيها الإله الذي فاق أباه عظمة وفاقت قدرته من خلقوه، ابق (هادئ البال) على عرشك، فإن الخوف منك عظيم لو أنت ألقيت مجرد نظرة نحو من تآمروا عليك. فقال جلالة رع: انظر كيف يولّون الأدبار في الصحراء وقلوبهم وجلة مما قالوه. ثم قالوا (الآلهة) لجلالته: دع عينك (أي الآلهة حاتحور) تنزل إلى الأرض حتى تقتل هؤلاء الذين اقترفوا إثمًا ضدك (وهكذا قُضِيَ الأمر).

ثم عادت الآلهة حاتحور بعد أن ذبحت خلقًا كثيرًا في الصحراء، وعندئذٍ قال جلالة هذا الإله (رع): مرحبًا يا حاتحور، هل قمت بأداء ما أُمرتِ به؟ فأجابته حاتحور: أقسم بحياتك لقد انتصرتُ على جميع الخلق، فانشرح صدري بذلك.

بيد أن سفك الدماء لم يكن قد انتهى بعدُ، إذ أرادت حاتحور في اليوم التالي أن تستمر في عملها. ولكن عوامل الشفقة حركت رع نحو العباد، فأخذ يُفكر في كيفية إيقاف هذه المذبحة. فأرسل على جناح النعامة رُسلًا إلى مدينة الفيلة في طلب نوع خاص من الفاكهة من هذه الجهة. ولما جيء بها أمر أن تعصر في هليوبوليس، فصنع الجواري من عصيرها جعة ملأت

سبعة آلاف إبريق. وكان لون هذه الجعة في الظاهر يشبه دم الإنسان. وقد أعدّ هذا الشراب المسكر ليكون منه خلاص بني الإنسان. وفي باكورة النهار أمر رع بإحضار هذه الأباريق إلى المكان الذي كانت ترغب حاتحور أن تذبح فيه الخلق، وهُنالك أُريقت تلك الجعة فغُمرت الحقول بهذا السائل الأحمر. ولما حضرت حاتحور في الصباح وجدت بحيرة من الجعة ينعكس فيها محياها بصورة جميلة؛ فشربت منها وعادت إلى بيتها ثملة غير قادرة على تمييز بني الإنسان (من غيرهم)، وبذلك سلم العباد من غضب حاتحور بحيلة من إله الشمس. على أن رع رغم ذلك سئم الإقامة بينهم فصعد إلى السماء ثانية على ظهر البقرة السماوية وأورث الأرض بعده المعبود «تحوت» (إله الحكمة)

ولم يكتف كهنة «اون» (هليوبوليس) بالتفنن في أساطير إله الشمس، بل صقلوا كذلك قصة الإله أُزريس ووضعوها في شكلها النهائي هي وتاريخ النضال الذي قام بين المعبودين المحليين حوريس وست؛ وقد قصصت ذلك عليكم في الفصل السابق نقلًا عن بلوتارخ.

المتناقضات في الأساطير المصرية

وليس ببعيد أن يكون إدخال حوريس في قصة أُزريس من صنع هؤلاء الكهنة وتفننهم؛ إذ صار حوريس في

هذه القصة ابنًا لأزريس، أما ست عدو مصر السُفلى فأصبح أخًا لأزريس وعدوًا مُنافسًا له.

وقد تسرب بطبيعة الحال عدد وفير من المُتناقضات إلى أساطير المصريين وخُرافاتهم بسبب اتساع دائرة الصفات التي عُزيت إلى كل إله، وانحلال بعض أركان الأقاصيص القديمة. ومن الغريب أن كهنة عين شمس كما أسلفنا لم ينظروا إلى هذه الأمور كأنها مُتناقضات، بل كانوا يرون فيها حكمة بعيدة المغزى، وعلى هذا الزعم أخذوا يحلون بمهارة لا مثيل لها تلك الإشكالات التي أوجدوها، وكان غرضهم الأسمى أن يُحققوا أسماء الآلهة العظام ويبتكروا تفسيرًا علميًا لأسمائهم وألقابهم المُختلفة.

أثر كهنة «أون» في ديانة المصريين وعلومهم

ولا يكاد يوجد متن ديني إلاّ ولكهنة «آون» أثر فيه. ولا نكون مُغالين (بل أننا على العكس نصيب كبد الحقيقة) إذ قررنا أن الجزء الأوفر من أدبيات القوم الدينية أُنشئت أو على الأقل نشرت في هذه المدينة. وقد بقى نشاط هؤلاء الكهنة الأدبي إلى إبان العهد اليوناني، وانتشرت شهرتهم وذاع صيتهم في بلاد اليونان نفسها، حتى إلى عهد هيردوت كان لكهنة عين شمس الشهرة بأنهم أعلم كهنة مصر. وكان كلاب العلم والحكمة أمثال يودوكس وأفلاطون يحجون «مدينة

الشمس» ليسمعوا فيها جوامع الكلم في الحكمة في كليتها الدينية.

أصل العالم في نظر كهنة «أون»

وقد صحب نمو الأساطير الدينية في مدينة عين شمس «هليوبوليس» سَعْيُ الكهنة لجعل النظرية الدينية الواحدة كفيلة بتصور هذا العالم، فتصوروا أنه في بداية الخليقة برئ معبود هليوبوليس المحلي «أَتُمْ» (وهو نفس الإله رع حوريس) ولذلك أُعتبر رأس الآلهة. ثم خلق بعده إله الأرض «جب» فآلهة السماء توت، وإله الهواء «شو». وكما أنه كان لجب زوجته بجواره. كذلك وجد لشو زوجة هي الإلهة «تفنت» التي فسرت بعدُ بإلهة «الندى» ثم تناسلت هذه الآلهة فولد «جب» و «نوت» الإله أزريس وأخته إزيس، والإله ست وأخته نفتيس،

التاسوع الأكبر

من ذلك تكون تاسوع الآلهة الذي يُمثل فيه أصل خلق العالم، وتاريخ مصر في عهد الفطرة. وتُعرف هذه الآلهة التسعة في علم اللاهوت المصري بتاسوع «آون» (عين شمس).

التاسوع الأصغر أو الثاني

وقد تألف بعدُ تاسوع ثان (ويُسمى التاسوع الأصغر) على نسق الأول، ودخل في زمرته آلهة مُختلفة من المعبودات المحلية، ووُضِعَ على رأس هذا التاسوع شكل خاص من الإله حوريس يُسمى «حرسيس» أي حوريس ابن إزيس. وحوريس هذا هو بطل قصة أزريس. وُلِدَ في منافع الدلتا المُوحشة وربته هناك أُمه إزيس، واعتبر في هذه الحالة الجديدة إلهًا من آلهة الشمس، أما الثمانية الآلهة الآخرون المُتممون حلقة التاسوع فكانوا الحامين له من شر أعدائه. ولا نعلم أسماءهم باليقين من المصادر التي بين أيدينا.

فمن بين هذه الآلهة كما روى العالم «مسبرو» الإله حوريس معبود إدفو. وقد طعن بحربيه عجول البحر والأفاعي التي تتعرض في المياه السماوية وتُكدر صفو إله الشمس أثناء سياحته في سفينته؛ ثم «تحوت» إله الحكمة الذي يقود السفينة في سياحتها باغانية السحرية، ثم «وِبْوَات» معبود أسيوط المحلي الذي كان يُحرك سكان السفينة وعند الحاجة يجرها بالأمراس في الماء الضحضاح.

وكان لهذين التاسوعين ثالث مُكمل لهما، ويتألف من أولاد حوريس الأربعة، وأولاد «خنتي خاني» معبود اثربيس (بنها).

التاسوع الثالث

ويُطلق على الكائنات التي يتألف منها التاسوع الثالث في المتون الدينية «ملائكة» عادة وأحيانًا تُعتبر آلهة. والظاهر أنها لم تكن آلهة بالمعنى الحقيقي، بل كان منزلة وُسطى بين الآلهة والبشر. أما عن مدلولات أسماء هذا التاسوع فلا نعلم شيئًا باليقين.

المعاهد الأُخرى تقلد معهد عين شمس

وقد أخذ عن كهنة عين شمس بعض المعاهد الدينية الأخرى مذهب خلق العالم وتاريخ مصر الفطري المُمثلين في تاسوع «أون» وجعلوه مُلائمًا لأحوال بيئتهم، بأن وضعت كل جهة إلهها المحلي موضع «أتُمْ» معبود «آون»، أي على رأس التاسوع ليكون لهُ المكانة الأولى، ويمجد على أنهُ خالق السموات والأرض. من أجل ذلك نرى لكل من فتاح معبود منف، ومن بعده آمون معبود طيبة المكانة الأولى في جهته بين الآلهة الأولين. ولم يكن بالأمر الصعب على كهنة المعابد الدينية التي تقول بعبادة إلهة أُنثى، أن يحلوا الآلهة محل «اتم– رع – حوريس». فمثلًا نرى «"نَيْت» معبودة سايس (صالحجر) و«حاتحور» معبودة دندرة، رفعت كل منهما إلى مرتبة المعبود الأعظم.

مذهب الأشمونين في خلق العالم

وكان هناك بطبيعة الحال مذاهب أُخرى في خلق العالم غير مذهب هليوبوليس، غير انهُ لم يحفظ من بينها مكانته في علم اللاهوت المصري، ولم ينل شهرة يُمكن

موازنتها بتاسوع هليوبوليس الأكبر، سوى مذهب واحد هو مذهب «هرموبوليس» (الأشمونين) إحدى مُدن الصعيد التي اتخذت تحوت إله الحكمة معبودها المحلي. وكانت طائفة المعبودات التي خلق منها العالم على حسب هذا المذهب تتألف من ثمانية.

وإنما جعلت ثمانية على ما يظهر، لأن الاسم المصري لمدينة هرموبوليس «خمنو» (ومنهُ أتت الأشمونين الحالية) معناه ثمانية: وهذه الحادثة البسيطة كافية وحدها للدلالة على أن هذه الآلهة الثمانية التي نشأ منها العالم لا يرجع علة وجودها إلى الخرافات الشائعة، بل إلى فروض رجال الدين ومبتدعائهم:

ونجد في هذا المذهب أيضًا أربعة آلهة وأربع إلهات بُدعن خاصة ليكن أزواجًا للآلهة، وهاك أسماء الآلهة: «نو» و«هيهو» و«كك» و«نونو»، أما الإلهات فهي «نوت» و«هيهوت» و«كيكيت» و«نُونِتْ». وعلى رأس هذه الآلهة «تحوت» (هرمس) معبود الأشمونين المحلي. وقد مثلت الآلهة في هيئة رجال لهم رءوس ضفادع. أما الإلهات فمثلن على شكل نساء لهن رءوس تعابين. وكذلك كانت تظهر جميعها في صورة رئيسها «تحوت» فتبدو في هيئة قردة. وكثيرًا ما نُشاهدها على هذا الشكل تحي بألحانها الشمس

المشرقة. بيد أنه مما يُؤسف له أنه ليس لدينا معلومات مدلول هذه الأربعة أزواج من الآلهة. وقد رأى العالم لبسيوس أنها تُمثل رمزًا إلى العناصر الأربعة الماء والنار والأرض والهواء. وفسر العالم بركش «نو» و«نوت» بالمادة الأولى. و«هك» و«هكت» بالقوة الفعالة و«كك» و«كيكت» بالظلام، و«نونو» و«نوت» بأصل خلق العالم. على أن كل هذه التفسيرات لا تخرج عن حد التخمين المُنطوي على الجرأة، والذي لا يكاد يدل على شيء مما كان يرمي إليه كهنة هليوبوليس الأقدمون.

ولا يغرب عن الذهن أن العقائد الدينية في الشكل الذي أوصلتهُ إليه أبحاث كهنة عين شمس وهرموبوليس وغيرها من المراكز الدينية، لم تصر يومًا ما من مُعتقدات الشعب، بل كانت على العكس تُحجب عن دهماء القوم بحجاب من التكتم، ويُنظر إليها كأنها أسرار مكتومة لا يصل إلى حقيقتها إلاّ الأخيار. فكان الفلاح المصري لا يعرف شيئًا عن إله الشمس الأصلي الذي كانت آلهة الشمس الأُخرى أسماء خاصة له، ولم يكن يعبأ بالتاسوع الأكبر أو التاسوع الأصغر، ولا بتلك الموجودات الغامضة التي تتألف منها، بل كان همه في أداء الصلاة للشمس صباحًا

ومساءً، وتقديم ما عنده من قربان للإله الذي يحمي ذماره، كما كان يفعل أجداده من قبل.

أما الكهنة فكانت العقيدة الخاصة بإله الشمس تزداد رواجًا بينهم على مر الأيام. والظاهر أن هذا المذهب قد نال في الأزمنة التاريخية تشجيعًا خاصًا من ملوك الأسرة الخامسة. وأصل ملوك هذه الأسرة (إذا أخذنا بما جاء في أحد كتب القصص القديمة) من سلالة أحد كهنة إله الشمس.

تسعة ملوك الأسرة الخامسة لإله الشمس

وكان يقطن مدينة «سخبو» بالوجه البحري على مقربة من عين شمس. وتقول القصة أن إله الشمس نفسه كان والد الثلاثة الملوك الأولى من هذه الأسرة، وأن الآلهة مدوا لهم المُساعدة وقت ولادتهم، وأهدوهم تيجان المُلك. وقد عكف هؤلاء الملوك على خدمة الإله «رع» بحماسة شديدة، فشيدوا له في مقابر منف معابد خاصة على نسق معبد الشمس في هليوبوليس.

الآلهة المصرية تتمثل بالإله رع

وقد كان من جراء تفضيل عبادة إله الشمس وإجلاله أكثر من غيره، أن أخذ القوم يُمثلون الآلهة الأُخرى به ويقولون أنها هو. وقد غالوا في الأمر حتى نسبوا ذلك إلى الآلهة التي لم يكن لها في الأصل علاقة ما بالشمس. كَسُبْك إله الماء، و«أمون» إله الحصاد، وصوروا كلًا منها بإضافة رمز «رع» له، وهو قرص الشمس يحيط

بـه ثعبـان فاتـك (الصـل). كـذلك أُنثيـات المعبـودات كانــت تُعتــبر إلهــات الســماء، كــل مــنهن تتمثــل في الأُخــرى ويُصــورن حــاملات قــرص الشــمس فــوق رءوسهن.

تطور الديانة في عهد الدولة الوُسطى

دخلت الديانة المصرية، في طور جديد من أطوار نموها وتقـدمها في خـلال حُكـم «الدولـة الوُسـطى»؛ وذلـك حينما انتقل مركز البلاد السياسي إلى الجنوب. وعلة ذلـك أنـه في خـلال الفـتن الداخليـة الـتي قضـت علـى الدولة القديمة كانت مدينة طيبة قد أصبحت ذات قوة وشُـهرة؛ فكـان لأُمرائهـا الفضـل في إرجـاع النظـام إلى نصابه، والسير بالبلاد ثانية في طريق الرُقي والنجاح، وبالرغم من أن ملوك الأُسرة الثانية عشرة نقلوا مقر حُكمهم إلى جهة الفيوم، فإن المدينة التي نشأوا فيها كانت لا تزال مطمح أنظارهم وموضع عنايتهم. لذلك اعتـبر أمـون معبـود طيبـة المحلـي إلـه الشـمس (أعظـم المعبودات المصرية) وصار اسمه «امون رع»، وأصبحت منزلتـه فـوق كـل الآلهـة، وأُقيمـت لـه المعابـد الجديـدة، وقُدِمَتْ له الهدايا النفيسة.

أمون رع أعظم الآلهة المصرية

ثم صارت طيبة فيما بعد مركزًا للمعركة التي قامت بين المصـريين وغُـزاة الهكسـوس. فلمـا وضـعت الحـرب أوزارهـا أصـبحت طيبـة مـرة أُخـرى حاضـرة للدولـة

الحديثة؛ وعندئذ أصبح أمون رع صاحب المكانة الأولى بين جميع الآلهة المصرية. فكانت فراعنة مصر تقود الجيوش المظفرة إلى الفرات شمالًا ويتوغلون بها في السودان جنوبًا تحت حماية هذا الإله. وكان الجزء الأَعظم من الغنيمة التي تحملها هذه الجيوش من الأراضي المغلوبة يحبس على «أمون رع» إله حاضرة البلاد؛ إذ كان هو الذي يمنح فرعون «ابنه المولود من ظهره، ورمزه في الأرض» السيادة على العالم، ولذلك كان له الحق هو وكهنته أن ينالوا جزاءهم الحق من هذه الغنائم.

المعبودان رع حوريس وفتاح يليان أمون في المنزلة

ومما سبق يتضح أن امون أصبح معبود مصر القومي في عهد الدولة الحديثة؛ فلم يكن لغيره من الآلهة المصرية مكانة عظيمة في الديانة الرسمية، اللهم إلاّ «رع حوريس» إله مدينة عين شمس، وفتاح إله مدينة منف حاضرة الدولة القديمة. لذلك كانت تُقام المعابد في البلاد المقهورة للإله أمون أولًا، ثم لرع حوريس ثانيًا، ثم لفتاح ثالثًا. وهذه الآلهة كان يعبدها أهل البلاد المقهورة على أنها الحامية للدولة المصرية.

طريقة التوفيق بين الآلهة بإدماجها في

وفي الوقت عينه كان علماء اللاهوت الذين ينزعون إلى طريقة التوفيق بين الآلهة المُختلفة وإدماجهم في إله واحد يدأبون على تحقيق غرضهم، فإذا كانت الفروق

بعضها

بسيطة بين أوصاف الآلهة المحلية وشكلها جرت العادة أن تُدمج هذه الآلهة بعضها ببعض وتُفسر بأنها مظاهر مُختلفة لإله واحد.

مثال ذلك أن الإله «أمو زرع» العظيم نشأت له مظاهر في آلهة أُخرى كالإله «من» معبود قفط المحلي، و«خنم» معبود الفنتين (أسوان)، وكذلك نشأ للمعبودة «بستت» إلهة «بوبسطة» مظاهر في الإلهة «سخمت» والمعبودة «بِخِتْ» (إلهة بني حسن)؛ وكلها كانت تظهر في صورة لبؤة أو قطة. على أن هاتيك الإلهات جميعها كن مظهرًا من مظاهر الإلهة «موت» أم الآلهة وزوج «أمون رع» إله طيبة.

ذلك يزيد الموضوع تعقيدًا

ومن البدهي أنه بهذه الطريقة ازداد الغموض والتعقيد اللذان كانا يعوقان تفهّم آلهة قدماء المصريين. حقًّا أنه لم يكن بالأمر العسير على عقل أريب في تلك الأيام أن يزيل آثار الارتباك من تلك المعتقدات والأساطير التي نشأت في عصور مختلفة وأماكن متباينة. فما كان عليه إلاّ أن يتأمل في المجهودات التي كانت تُبذل وقتئذٍ لإدماج الآلهة المحلية المختلفة بعضها ببعض وجلعها آلهة تُمثل الشمس أو السماء، فيجد في ذلك دلالة كافية على أن القوم انصرفوا عن عبادة الآلهة الأولى المحلية ولم يعد هُنالك مبرر لعبادة شيء إلّا طائفة

صغيرة من الآلهة، أو عبادة إله واحد.

ماذا يحدث لو قام فرد ينشر عبادة إله واحد؟

ولكن لعمري أينن ذلك الرجل الذي كان يَكِنّ بين جوانحه الشجاعة الكافية، لإبراز هذه النظرية الأخيرة من حيز الفكر إلى حيز العمل، فيضرب بالمعبودات القديمة عرض الحائط ويحل محلها إلهًا واحدًا جديدًا؟ أليس من الطبيعي إذا قام هذا المصلح بمثل ذلك الانقلاب أن يقوم في وجهه كهنة المعابد الدينية في جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها محاربين هذا التفسير ومُدافعين عن ميزات آلهتهم ومناقبهم الخاصة؟ بل ماذا يكون جواب كهنة طيبة سَدَنَةُ «امون رع»، حينما يرون إلههم يخلع أمام أعينهم من عرشه، وهم الذين كانوا يقيمون الحفلات ويولمون الولائم والفخر ملء صدورهم تمجيدًا لقوته وعظمته وجبروته؟ ألا يُعارضون بكل من لديهم من حول وقوة في إدخال إله آخر أعظم من إلههم أمون؟ ثم ماذا يكون رأي دهماء القوم الذين شبوا على احترام آلهتهم القديمة ولم يشغلوا عقولهم بالمذاهب الدينية؟ وكيف يسوغون لأنفسهم أن يقتنعوا بأن سلطة آلهتهم الأقدمين أصبحت في خبر كان؛ وأن إلهًا جديدًا حل محلها تجب عبادته وإقامة الصلوات وتقديم القرابين له بأمر من السلطة الحاكمة؟ على أن يوم هذه المُخاطرة الجريئة لم يكن ببعيد؛ يوم

يُقضَى على الآلهة الأقدمين وتُبدل عبادتهم بعبادة إِله واحد في السماء والأرض.

المُنافسة بين كهنة عين شمس وبين كهنة أمون

وكانت عوامل الحقد، والغيرة، والبغضاء تحتدم نيرانها في نفوس كهنة عين شمس، إذ رأوا أن المعبود أمون رع قد علت مكانته حتى أصبح إله الدولة العام؛ وأن كهنته أصبح في أيديهم قوة كبيرة بفضل ما كان يفيض عليهم الملوك من الخيرات العظيمة بكرم حاتمي. فقد كانت كهنة «عين شمس» يدّعون أن إله الشمس «رع حوريس» هو المُسيطر على العالم أجمع، في حين أن أمون ليس بأعظم شأنًا من «فتاح» إله منف المحلي، أو سبك معبود الفيوم، وأنه إذا قرن برع حوريس يكون مثله كأمير القطيعة والملك. بيد أن أمون أظهر من آيات الجميل والأنعام على فرعون ما جعله لا يأبه بأقوال أتباع «رع حوريس» التي كانت تنم عن الغيرة وترمي إلى جعل إلههم صاحب المكانة الأولى في الدولة المصرية. على أنه بمرور الزمان سنحت الفرص لكهنة «هليوبوليس» لنيل أمنيتهم والوصول إلى مرغوبهم.

سنوح الفرصة لكهنة عين شمس بتولي امنحتب العرش

وذلك أن الملك امنحتب الثالث لما لفظ الحياة عام ١٣٩٢ ق. م خلفه ابنه امنحتب الرابع على أريكة مصر. والظاهر أنه تربى تربيته الأولى بين كهنة عين شمس. وسواء أكان ذلك حقيقة أم لم يكن، فقد كان

هـواه مـع مـذهب كهنـة هـذه المدينـة القائـل بأن إلـه الشـمس أعظـم الآلهـة، وأنـه لـذلك أحـق بأن تسـود عبادته في جميع العالم، وأن تُهدى إليه أحسن خيرات الدنيا وأثمنها.

عقيدة كهنة عين شمس السرية

وقـد أفلـح كهنـة عـين شمـس في اسـتمالة الملـك إلى جـانبهم ووجـدوا فيـه العضـد الأكـبر لإثبـات دعـواهم وتحقيـق غـايتهم. وفي هـذه الآونـة نمـت عقيـدة سـرّية خاصـة بـين علمـاء اللاهـوت في عـين شمـس تقـول بأن أنقى شكل يظهر فيه إله الشمس ليس هو «رع» بل مظهـره الوحيـد وهـو قـرص الشـمس. ووضـعوا لهـذا المظهر اسمًا خاصًا وهو «رع حوريس» الذي يصيح من الفرح على الأُفق ويبتهج باسمه «النور الذي في كرة الشمس». على أننا لا نعلم معنى هذا اللقب الغريب، ولا نعرف شيئًا عن التعاليم التي كانت تلقنها أتباع هذا الإله. والظاهر أن امنحتب اعتنق هذا المذهب بحماس وشغف، إذ أنـه لم يقتصـر علـى الانضـمام إلى حلقـة أتباعه، بل صار أيضًا رئيس رسله.

امنحتب ينشر المذهب الجديد

ولم يكد امنحتب الرابع يجلس على عرش مصر حتى أخذ يسعى في نشر عبادة هذا الإله الجديد في أنحاء البلاد. فأعلن جهارًا أنه رئيس رُسل هذا الإِله العظيم، وأمر بتشييد معبد فخم له في مدينة طيبة مُلاصق لمعبد

أمون. وقد ظهر هذا الإِله الجديد على النقوش البارزة التي زينت جدران هذا المعبد على شكل المعبود القديم «رع حوريس»، أي في هيئة إنسان له رأس باز ويتوّج هذا الرأس قرصُ الشمس يحيط به صل. وقد أُقيمت في منف وغيرها من البلدان المعابد لهذا المعبود وتعددت أسماؤه فعُرِفَ بـ «رع حوريس، وقرص الشمس« و«آتون» (ومعناه باللغة المصرية قرص الشمس)

أخناتون المكان المُقدس للمعبود الجديد

وقد خصص الملك لهذا الإله جهة مقدسة وُقِفَتْ عليه تُعرف باسم «أخناتون» أي أُفق قرص الشمس. وهذا المكان يُسمى الآن تل بني عمران (بالقرب من ملوي) نسبة إلى قبيلة البدو التي استوطنته.

الملك يعبد الآلهة الأُخرى أيضًا

وحذا حذو الملك في اعتناق المذهب الجديد أصدقاؤه ووليجته ورجال دولته وإن لم يعتقدوا فيه من قلوبهم. ورغم ما كان عليه امنحتب من التحمس لإِلهِهِ الجديد أَباح في بادئ الأمر عبادة أمون وغيره من المعبودات المحلية، بل لم يحجم عن الظهور في النقوش والصور وهو يعبد أمون وتحوت وست وغيرها من الآلهة. ولا غرابة إذا علمنا أنه رغم كل المجهودات التي بذلها الملك في نشر دعوته، كانت تُقاومها كهنة المعابد الدينية وبخاصة كهنة طيبة أتباع أمون؛ غير أن هذه المقاومة لم

تفت في عضد فرعون لدرجة تجعله يحجم عن إدخال عبادة إلهه، بل أورت بالعكس نار تعصبهِ لمعبوده لدرجة عظيمة، وساقتهُ أخيرًا لاتخاذ خطوة حاسمة.

محو جميع المعبودات وعبادة إله واحد

ففي السنة السادسة من سني حكمه جعلت عبادة آتون الدين الرسمي للبلاد، ومن وقتئذ طلب رسميًا إلى المصريين والنوبين والأسيويين الخاضعين للدولة المصرية أن يعبدوا هذا الإِله للفرد الأحد دون سواء. وقد أمر الملك بإغلاق معابد كل الآلهة الأُخرى، وتحطيم تماثيلها، ومحو صورها، وطمس أسمائها على جدران المعابد. وقد ظهر هذا الاضطهاد بشكل مريع، وبخاصة ضد المعبود أمون وأسرته (الآلهة موت وإله القمر خنس).

الملك يغير اسمه المشتمل على كلمة أمون

فصودر اسم أمون جملة، ولم يسمح بذكره في أي مكان، حتى أن كل فرد دخل في تركيب اسمه أمون كان لِزامًا عليه أن يُسمي نفسه من جديد. وأول من فعل ذلك الملك نفسه؛ فإنه تبرأ من اسمه أمنيحتب (أمون راض)، وسمى نفسه من جديد باسم أخناتون ومعناه (روح ضوء الشمس).*

* جاء في كتاب الأستاذ «بْرِسْتِدْ» تدرج الديانة والأفكار في مصر القديمة صفحتي ٣٢١ و ٣٢٢ «وقد غير الملك اسمه من أمنحُتب» (ومعناه أمون يرتاح أو راض) إلى أخناتون ومعناه (أتون راض). وهذه ترجمة لاسم الملك القديم بفكرة تتناسب مع مذهب اتون.

نقل الحاضرة إلى أخناتون

حقًا تغلغل الملك في الاعتقاد بدينه الجديد بحماسة وإخلاص لم يسبق لهما مثيل، ولقد رأى أن طيبة حاضرة ملكه لم تكن بالمكان الملائم لخدمة إلهه بحمية صادقة، إذ كان كل شيء في هذا البلد مُرتبطًا بِعبادة أمون تمام الارتباط من قديم الزمان؛ ولم يخط فيه المذهب الجديد خطوات واسعة رغم كل ما بُذِلَ من المجهودات في نشره. من أجل ذلك عقد فرعون النية على هجر طيبة مستصحبًا كل وليجته، فولى وجهه شطر تل بني عمران ليؤسس فيها حاضرة جديدة. وقد كان من قبلُ حبس هذا المكان على الإله «آتون». ثم دخل في السنة السادسة من حكمه بأُبهة وعظمة حاضرته الجديدة «أُفق قرص الشمس» (أخناتون).

موضوع الدين الجديد يظهر في تسبيحة للإله أتون

قد تتساءل أيها القارئ عن موضوع هذا الدين الجديد الرسمي، وعن العقيدة التي كَرَّسَ الملك نفسه لخدمتها بهذه الحمية، والتي بذل أقصى جهده لنشرها في أنحاء بلاده من أقصاها إلى أقصاها. فالجواب على هذا السؤال واضح جلي في التسبيحة الشهيرة التي ربما كانت من نسج فرعون نفسه؛ إذ فيها يُسبّح لآتون

وقد كتب في هامش الصفحة السابقة من الكتاب نفسه ما يأتي:

انظر مقال الأستاذ سيتي (Sethe) في مجلة «سَيْتُشْرِفُتْ» جزء ٤٤ صفحة ١١٦ – ١١٨ حيث نجد البرهان على صحة الترجمة الجديدة لهذا الاسم. وتبعًا لذلك يجب إصلاح ترجمة هذا الاسم في كتاب المؤلف (برستد) «تاريخ مصر القديم» صفحة ٣٦٤.

بصفته الإله الواحد خالق كل الحياة ومُنظم العالم وحافظ الكون ومطلعها:

«جميل نورك على أُفق السماء، أنت يا من هو الشمس الحية التي وُجِدَتْ قبل كل شيء. حينما تشرق على الأُفق الشرقي تملأ كل الأرض بجمالك. أنت جميل وعظيم وساطع ومشرق على كل الأرض. أشعتك تكتنف كل العالم وكل ما هو من صنعك».

ثم يأتي بعد ذلك كيف أن الناس حينما تختفي الشمس ليلًا وتنزل تحت الأُفق الغربي، يغشاهم النعاس، وأن الحيوان المفترس عدو الإِنسان كالسباع، والحشرات المؤذية كالثعابين تخرج من مخابئها. ولكن شتان بين ذلك وبين الحال «حينما تكون الأرض مُضيئة، عندما تشرق أنت على الأُفق وترسل أشعتك فعندئذ يشمل السرور العالم» ويستيقظ الناس ويقفون على أرجلهم، لأنك أيقظتهم فيغسلون أبدانهم ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم تضرعا وابتهالًا حينما تشرق. ووقتئذ تكون كل الحيوانات آمنة مُطمئنة في مراعيها وتخضر الأشجار والأعشاب وتطير العصافير من أوكارها وأجنحتها تثنى عليك. وتمرح الأغنام في مراعيها وكذلك تحيي كل الحشرات والطيور حينما تسطع بأشعتك عليها».

كـذلك تبعـث الشـمس الحيـاة في البحـار «فتسـبح الفلك فيها جيئة ورواحًا شمالًا وجنوًبا، وتسبح الأسماك أمامك في النهار، وتخترق أشعتك حجب البحر».

كـذلك كـل بـني الإنسـان والحيـوان مـن خلـق الشـمس «فهي تُسوي الجنين في بطن أمه، وعنـدما يظهر الطفل للعالم يوم ولادته تفتح فاه ليتكلم».

وآتـون أيضًـا «هـو الـذي ينفـث ريـح الحيـاة في الفـرخ حينمـا يخرج مـن قشـر البيضـة.. مـا أكثر الأشـياء الـتي برأتهـا، فبإرادتـك خَلَقْـتَ الأرض والإنسـان والحيـوان وكـل المخلوقـات الصـغيرة، وكـل مـا يمشـي علـى رجليـه، أو يطـير بجناحيـه. وكـذلك خلقـت أرض سـوريا وبـلاد أثيوبيا، فضلًا عن أرض مصر. أنت تضع كل شيء في مكانـه، وأنـت تسـد حاجتـه. النـاس ألسـنتهم مُختلفـة وألوانهم مُتباينة. هكذا قسمت كل العالم».

ولما كـان آتـون خـالق النـاس، كـان هـو الـذي يطعمهـم: الأجانب منهم من ماء السحاب، والمصريون من النيل «النيل السماوي». وفي الختام يسبح للإله لأنه «أوجد فصول السنة: فخلق برد الشتاء وحرارة الصيف: أنت ذرأت السموات العُلى لتنير فيها وتبصر من علاك كل ما خلقت. أنت الإله الأحد. أنت تضيء في مظهرك على شكل قرص الشـمس الحـي. أنـت تشـرق وترسـل

أشعتك: فالمدن والقرى وقبائل البدو والأنهار وكل الأبصار تنظر إليك حينما تشرف على الأرض».

حقًا أن هذه التسبيحة لمن أجمل التسابيح التي وصلت إلينا من الأدب المصري، غير أنها لا تشتمل على أفكار مُبتكرة، إذ كل ما جاء فيها يُحتمل وجوده في تسبيحة للشمس من نسج أتباع المذهب القديم قبل قيام هذا الإصلاح الديني. على أن العقيدة الهامة في هذا الدين الجديد هي أن آتون هو الخالق والمُنظم والحاكم للعالم أجمع لا مصر وحدها، فكأنه ملك العالمين. وهذه الصفة قد عبر عنها أتباعه في شكل ساذج فوضعوا اسم الإله في خاتم (خرطوش)، كما تُوضع أسماء مُلوك الدنيا وأضافوا إلى ذلك بعض الألقاب مثل «كرة الشمس الحية» أو «رب كل ما تحيطه كرة الشمس» و«الذي يضيء مصر» «ورب أشعة الشمس».

المذهب الجديد يرمي إلى التوحيد

ولا مشاحة في أن هذا المذهب كان يرمى إلى الفضاء على فكرة تعدد الآلهة قضاءً مبرمًا والاستعاضة منها بمذهب توحيد ظاهر لا يشوبه شيء سوى أنه مادي. ولكن للأسف كان ما يصلحه الملك باليد اليُمنى يفسده بيسراه، إذ رفع نفسه إلى مرتبة الآلهة، وأصبح يُعبد في جهات مختلفة، ونُصّبت الكهنة لإقامة عبادته،

هذا إلى أن المذهب الجديد دخل عليه تغيير في عقائده حتى بعد اعتراف الحكومة بأنه دين البلاد الرسمي. وقد ظهر ذلك جليًا في اختلاف أسماء أتون؛ إذ أطلق عليه لقب أغرب مما سبق ذكره وهو «رع (الشمس) يعيش، أو أمير الأفقين، وهو الذي يبتهج على الأفق باسمه – اللهيب الذي يتبعث من الشمس».

محو التماثيل التي تُمثل الإله

ومن النقط الهامة التي خالف فيها المذهب الجديد التقاليد القديمة، الشكل الظاهري الذي كان يُمثل فيه الإله. وذلك أنه في بادئ عهد الإصلاح الديني، أي في خلال السنين الأولى من حكم امنحتب الرابع، كان يُمثل المعبود أتون كما ذكرت آنفًا على شكل المعبود القديم رع حوريس، ولكن لما أصبحت عبادة التوحيد هي العبادة الرسمية قضى على كل مظهر يُمثل الإله على شكل إنسان، ومحى كل صورة أو تمثال يُمثل الإله، وأصبحت العبادة مقصورة على الشمس الظاهرة المُضيئة، وكانت تُمثل إذ ذاك على صورة قرص مستدير يرسل أشعة طويلة ينتهي كل منها بيد قابضة على علامة الحياة مانحة إياها الملك وأسرته بصفتهم المُمثلين للإنسانية.

انتشار المذهب الجديد

والظاهر أنه لم تقم معارضة جدية لإدْخال هذا المذهب الجديد في أي جهة من جهات القطر، إذ لم نسمع

بقيام أي حركة ثورية تُناهض الملك، بل أن السواد الأعظم من عمال الأقاليم خضعوا صاغرين لأوامر فرعون؛ ومن أظهر منهم أي معارضة كان نصيبه العزل من منصبه، بل قد يكون جزاؤه القتل.

توت عنخ أتون يضطر إلى الرجوع إلى المذهب القديم

على أن أمد هذا المذهب لم يدم طويلًا؛ إذ لم تكد تُواري التراب جثة أخناتون، بعد أن جلس على عرش مصر ثمانية عشر عامًا، حتى هبت عاصفة على تلك النهضة الدينية التي صرف فيها هذا الملك طول حكمه، فقام أتباع المذهب القديم وعلى رأسهم كهنة طيبة، وبذلوا جهد طاقتهم في السعي وراء إعادة الآلهة الأقدمين، وفتح معابدهم ثانية للتعبد فيها واسترجاع ضياعهم وأملاكهم المغتصبة. وقد حاول صهر امنحتب وخلفه على العرش (لأن ذلك الملك الزائغ لم يترك ولدًا يعقبه على عرش مصر) أن يُقاوم الحركة التي قامت ضد الإصلاح، فكان نصيبه أن خُلِعَ عن عرشه سريعًا. وكان ذلك درسًا شافيًا لخلقه وحميه «توت عنخ أتون»، إذ رأى بثاقب رأيه أن مذهب أتون لا يُمكن أن يبقى دين البلاد الرسمي، وأن الطريقة المُثلى لِحفظ عرشه وبقاء مُلكه أن يصلح ما بين العرش وبين أتباع المذهب القديم. فأعاد حرية عبادة الآلهة الأقدمين، وأعلن للملأ اعتناقه عبادة أمون ذلك الإله الذي كان

مُنذ هُنيهة مُضطهدًا أيما اضطهاد.

غير اسمه إلى توت عنخ أمون

وكما أن امنحتب قد غير اسمه لأنهُ يشمل كلمة أمون المُحرمة عنده، كذلك غير «توت عنخ أتون» اسمه الذي كان يشمل لفظة آتون المُحرمة، فأصبح اسمه من ذلك العهد «توت عنخ أمون» (تمثال أمون الحي). ثم خضع لمقتضيات الأحوال، فهجر مقر ملكه في تل العمارنة وانتقل بوليجته إلى طيبة حاضرة البلاد القديمة.

حور أمحب قضى على المذهب الجديد جملة

على أن الملك الذي محى مذهب امنحتب الرابع من البلاد جملة هو «حور امحب» خلف الخلف الثاني* لتوت عنخ آمون؛ إذ أزال من عالم الوجود معبد آتون الذي كان لا يزال باقيًا إلى هذه اللحظة، وقامت في طول البلاد وعرضها حملة شعواء على كل شيء يخلد ذكر عابد الشمس (أخناتون) أو أسرته أو إلهه؛ فمحيت أسماؤهم وصورهم أينما عثر عليها.

بذلك ظهر الدين القويم وانتصر انتصارًا مُبينًا، ولكن الثمن كان غاليًا، إذ كان في ذلك القضاء على تلك الحياة الدينية التي كان أحسن ثمارها تلك العقيدة الجديدة التي أخرجها ذكاء امنحتب الرابع. وبذلك

* وهو الملك آي والمعروف عنه من الآثار أنه حكم أربعة أعوام — راجع كتاب العالم جوتيه في أسماء الملوك.

وقف كل تقدم في هذا المذهب الجديد.

أمون صاحب المكانة الأولى ثانية

وعلى ذلك أصبح أمون ثانيًا صاحب المكانة الأولى التي لا يُنازعه فيهاُ منازع بين آلهة المصريين. واستمر كهنته على طريقتهم القديمة، أي طريقة التوفيق والتأليف بين المذاهب المُختلفة فأخذوا يشحذون قرائحهم ليظهروا أمون بأنهُ «هو الواحد الأحد الذي لا ثاني له».

وتتمثل ميول الكهنة الرجعيين ومبتدعاتهم الدينية في تسبيحة طويلة للمعبود أمون وهأنذا أقتبس لكم نموذجًا أو نموذجين:

«الحمد لك يا أمون رع، أنت أيها الثور الذي يسكن عين الشمس، يا إله الخورنق.. أنت أيها الواحد القديم في السماء وأقدم (الآلهة) في الأرض، يا رب القانون ووالد الآلهة، ... الذي خلق ما علا وأنخفض (يُحتمل أنه يعني الأجرام السماوية وبني الإنسان)، والذي يفيض نورًا على العالم، والذي يقوم بسياحة موفقة في السموات؛ أنت يا أيها الملك رع المبارك، أيها المُسيطر على العالم، أنت يا غنيًا في قوَّته ومُمتلئًا بطشًا، ... الحمد لك يا خالق الآلهة، يا رافع السموات، وباسط الأرض .... يا إله الكل الذي خلق الأبدية، .... يا أيها الملك الرفيق المتوّج بالتاج الأبيض، يا إله البهاء

الذي خلق النور، يا من تسبح بحمده الآلهة، الحمد لك يا رع يا إله الحق، يا من قدوسه لا يُرى، أنت يا رب الآلهة؛ أنت «خير رع» في سفينتك بأمرك تستيقظ الآلهة، أنت «أتم» الذي ذرأ بني الإنسان، أنت الذي خلق كل شيء موجود، الناس برأت من عينيك، والآلهة من فيك. أنت الذي خلقت الأعشاب النضرة للأنعام، والأشجار التي تحمل الفاكهة للناس. أنت الذي ترزق الأسماك في النهر، والطيور تحت السماء، وتمنح ريح الحياة للكائنة التي لا تزال في برجها، وتنعش ابن الدودة، وتمنح الحياة للذباب، كما تمنحها للديدان والبراغيث، وترزق الفيران ما تحتاج إليهِ في أجحارها ..... الحمد لك يا من خلقت كل هذا. أنت أيها الملك يا صاحب السلطان الأعظم بين الآلهة. نحن نعبدك لأنك خلقتنا ونُسبح بحمدك لأنك صورتنا، ونشكرك ونُقدسك لأنك تعيش بيننا».

ومما لا مراء فيه أنك تُلاحظ في كل هذه العبارات نغمة ظاهرة واضحة تنطق بعقيدة التوحيد. بيد أنها في الحقيقة مجرد عاطفة، إذ الواقع أن القوم تمسكوا بأهداب آلهتهم الأقدمين أكثر من قبل. فكان الإله أمون أعظم الآلهة شأنًا وبجانبه كان «رعجوريس» معبود عين شمس و«فتاح» معبود منفيس لا يزالان مُحافظين

على مكانتهما العالية بين الآلهة المصرية، وكان يُسبح بحمدهما في تسابيح كالتي اقتبسنا منها ما تقدَّم.

مكانة الإله ست

والحقيقة أنهُ لم يكن بين الآلهة المصرية فضلًا عمن ذكرنا من حظى بمقام عظيم ومكانة سامية سوى الإله «ست»، وذلك لمدة قصيرة في عهد الرعامسة. كان هذا الإله في بادئ الأمر معبود «امبص» المحلي، ثم صار مُنذ العصور الأُولى إله المملكة الجنوبية (الوجه القبلي). ثم دخل في طائفة «التاسوع الأكبر» لمدينة «عين شمس» ولعب دورًا هامًا في قصة أزريس؛ يُضاف إلى ذلك أن عبادته استقرّت في شرقي الدلتا وخاصة في مدينتي «تنيس» و«اواريس» (القنطرة الحالية) وبذلك أصبح الإله الحامي لشرقي مصر. ثم تخطى الحدود المصرية وصار الحامي لأملاك فرعون السورية. أما في مدينة اواريس التي اتخذها الهكسوس حاضرة للبلاد بعد غزوهم مصر، فإنهُ أصبح كذلك حامي هؤلاء البرابرة وعدوًّا للإله «رع حوريس» الذي كان يحمي المصريين ويقودهم في ساحة الوغي ضد عدو الوطن. والواقع أن الإله ست صار عندهم الإله «بعل» حامي القبائل والمُدن السورية، غير أنهُ رغم ذلك كان في نظر القوم مصري المنشأ، وبقى في عداد الآلهة المصرية ومكث يُعبد في مُدنه القديمة.

ست جد فراعنة الأُسرة التاسعة عشرة

وقد اعتبره ملوك الأسرة التاسعة عشرة لأسباب لم نقف على كُنهها بالضبط جدًّا لهم. وقد تُسمى باسمه عدد وفير من ملوكهم مثل سيتي (ومعناه المنسوب إلى الإله ست) وستنخت (ومعناه ست قوي) ولما نقل رمسيس الثاني مقرّ حُكمه لمدة وجيزة إلى مدينة تنيس على الحدود الشرقية، أخذت شُهرة الإله ست معبود هذه المدينة تزداد كثيرًا حتى أصبح من أهم المعبودات، وصار يضارع في مكانته الآلهة أمون ورعحوريس وفتاح، ولذلك أُقيم له بدلًا من معبده القديم معبد جديد فخم لا تزال بقاياه العظيمة تشهد ببهائه الغابر.

دخول معبودات أجنبية في الديانة المصرية

وفي عهد الدولة الحديثة، حينما كانت البلاد المصرية على اتصال كبير بغربي أسيا، دخل البلاد طائفة كبيرة من الآلهة الأجنبية وقد وجدوا صدرًا رحبًا ومكانًا سهلًا من الأجانب الذين كانوا يقطنون مصر إذ ذاك، بل من المصريين أنفسهم أيضًا. ويشاهد ذلك خاصة في الإله «بعل»(**baalim**) الذي اعتبر أنه هوست، وعُبد في شكل الحيوان الهائل الذي يُمثل ذلك المعبود، ثم الإلهة «أستارت» التي كانت كالآلهة بابليون تُمثل في هيئة امرأة عارية واقفة على أسد (حيوانها المُقدس) أو على شكل امرأة برأس لبؤة على الطراز المصري؛ ثم نجد كذلك إله الحرب «رشب» لابسًا خوذة الحرب

وفي يده حربه، والإلهة قادش التي كانت تُلقب بمناقب الإلهة حاتحور المصرية مثل «سيدة السماء» و«المسيطرة على كل الآلهة» و«عين إله الشمس» و«بنت رع ومحبوبة إله الشمس». كذلك حازت «أنات» (إلهة الحرب عند السوريين) مكانة في المعابد المصرية، ونالت شهرة عظيمة في عهد رمسيس الثاني حتى أنه سَمى باسمها أحب بناته إليه «بنت آنات».

تدهور عبادة ست

بيد أنه في خلال ألف العام الأولى قبل المسيح، عندما أخذت عرا المودة بين مصر وسوريا وفلسطين في الانحلال تدريجًا، تدهورت عبادة الإله ست لأنه كان وليّ الأسويين، وابتدأ المصريون يعتبرونه حامي أعدائهم فحسب.

ست مصدر كل شر

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أخذت الكهنة تصوّر بشكل بارز الدور المعزو إليه في قصة أزريس، وأصبح يُعتبر في نظرهم تدريجيًا أساس كل شر؛ فإنه هو الذي ذبح أزريس واشتبك في نضال عنيف مع حوريس المُنتقم لأبيه. ومن ثم أصبح خصم إله الشمس، ومُمثل الظلام، ورب القحط والصحراء، والمُهلك لكل شيء حي. وكذلك صار عدوًا لكل خير وشيطانًا بين الآلهة المصرية، ثم انتهى الأمر بإخراجه من بين المعبودات المصرية، فبطلت عبادته ومحى اسمه وصورته أَنَّى وجدا.

ولما وقف الإغريق الأقدمون على قصته قرنوه بإله الشر عندهم «تيفون» العدو الخرافي «لزوس» فانقضت على الأوّل صاعقة بعد شجار عنيف وسقط في «ترتاروس» *(Tararus).

المعبودات المحلية في الدلتا يعظم شأنها

وقد كان إبعاد ست من بين المعبودات المصرية آخر مظهر من مظاهر التحمس عند قدماء المصريين للمُحافظة على ديانتهم التي كانت وقتئذ في النزع الأخير؛ إذ بانحطاط شأن طيبة حاضرة البلاد تدريجيًا بعد طرد ملوك النوبة أخذت شهرة أمون تتلاشى باستمرار. ثم انتقل مقر المُلك إلى الشمال وتحول معه كذلك محور سياسة البلاد، فنتج عن ذلك أن آلهة الدلتا المحلية، أمثال المعبود «نيت» إلهة صا الحجر و«باستت» (القطة) معبودة بوبسطه والمعبود «أنوبِيْس»، وبخاصة الإله أزريس وأسرته، والمعبود «حور بوخراد» (حور الطفل)، كل هؤلاء أخذت تعظم مكانتهم ويكبر شأنهم باستمرار.

عبادة الأبطال

وبدخول المدينة الإِغريقية البلاد دخلت معها عبادة «الأبطال»، وذلك أن الحُكماء الأقدمين الذين كان يحج المصريون قبورهم من أقدم العصور ويحترمونهم

* العالم السُفلي وبخاصة المكان الذي يُعاقب فيه الأشرار.

ويعظمونهم كما يُعظم المصريون الأولياء في عصرنا هذا، دخلوا في العصر الإغريقي بين زمرة الآلهة المصرية. فمن بين هؤلاء نخص بالذكر «امنوتس بن حابو» المهندس المعماري البارع في عهد امنحتب الثالث، أصبح يعتبر نصف إله، وصار يُعبد في معابد عدة في طيبة الغربية؛ وكذلك «إمحوتب» المقدس فإنه أصبح في مصاف الآلهة؛ وهو من مشاهير المهندسين المعماريين المعاصرين للملك زوسر «الأسرة الثالثة».

أمحوتب في مصاف الآلهة

وقد ساد الاعتقاد أنه كان صاحب حكمة وعرفان، ولا سيما في فن الطب الذي برز فيه. وكان قبره الواقع على مقربة من هرم مَلِيكه (هرم سقارة المُدرج) قبلة الذين يطلبون الشفاء من أوجاعهم؛ فشُيد له في هذا العهد الجديد معبد في هذه الجهة أُقيمت فيه الشعائر الدينية احترامًا وتبجيلًا له، فلم يعُد امحوتب كأحد الموتى الذين تُقدَّم لهم القرابين، بل أصبح إلهًا، وقرر الكهنة أنه ابن الإله فتاح. وقد اعتبره الإغريق إلههم «اسكليبوس» إله العلاج لتشابه صفاتهما. وقد سرت عبادة إمحوتب من منف إلى سائر أنحاء البلاد. وبلغ من شدة احترام القوم له أن أقام لهُ «بطليموس فلدلف» معبدًا في جزيرة الفيلة المُتاخمة لحدود النوبة.

سر بيس الإله

بيد أن كل الآلهة المصرية تلاشت حينما أدخل

الجديد

بطليموس الأول في وادي النيل إلههُ الجديد «سِرَبيس» باحتفال مهيب. وسبب إدخال هذا الإله في البلاد المصرية على ما روى أن «بطليموس سوتر» رأى في منامه أن ينقل الإله الأعظم «زوس هيدز» (zues hades) من ميناء سينوب على البحر الأسود إلى مصر. فحقق بطليموس هذه الرؤيا ونقل الإله المذكور إلى الإسكندرية في موكب حافل حضره عدد عظيم من علماء اللاهوت من الإغريق والمصريين من بينهم منيتون المؤرخ المصري القديم. وقد اعترف به القوم وعُرِفَ بالإله «سربيس». بيد أنهُ لم يقف أحد إلى الآن على كُنه هذا المعبود. وغاية ما يُمكن استنباطه أن بطليموس قد بلغ بعمله هذا أمنيته، فقد صير المعبود الجديد إلهًا للعالم الإغريقي المصري، تُحنى أمامهُ كل رعاياه على سواء الرءوس إجلالًا واحترامًا. وفعلًا رأى فيه الإغريق أكبر آلهة العالم، إذ كان يُمثل في شخصه «زوس» إله السماء و«هليوس» إله الشمس و«هيوز» إله العالم السُفلي. ورأى فيه المصريون من طريق تشابه الأسماء علاقةً بالعجل أبيس إله الموتى ومعبود مدينة منف (الذي كان يُسمى بعد مماته أزريس أبيس). فاعتقدوا أن الإله الجديد «سربيس» هو «أزريس أبيس» إلههم القديم.

القضاء على الوثنية المصرية

وقد راجت عبادة سِرَبيس في مصر بسرعة مُدهشة، ويلوح أن سكان وادي النيل من إغريق ومصريين كانوا قد يئسوا من عودة مجد آلهتهم الأقدمين، وأصبحوا يتطلعون إلى قوة سماوية جديدة، وبذلك صار سربيس إله مصر عامة في عصر الإغريق والرومان. بيد أنه لم يكن في استطاعة هذا المعبود أيضًا أن يبعث حياة دينية جديدة في نفوس أهل مصر. والحقيقة أن الزرع وقتئذٍ كان قد نضج للمنجل، إذ على أثر تخريب معبد «سربيس» بالإسكندرية في عهد تيودور الأكبر أول إمبراطور مسيحي، حطم تمثال هذا المعبود الأكبر بضربة من معول جندي؛ وعندئذٍ ضربت الوثنية المصرية الضربة القاضية. وبزوال «سربيس» تمزق شمل الديانة المصرية ولم تقم لها قائمة بعد.

المحاضرة الثالثة

المعابد والاحتفالات

مقدار تدين المصريين

«المصريون قوم يخافون الله أكثر من أي شعب آخر». هذا هو حكم هيرودوت على سكان وادي النيل من الناحية الدينية في القرن الخامس قبل الميلاد. ولا مشاحة في أن حُكمه عليهم في هذا العصر المُتأخر كان ينطبق عليهم في عصور تاريخهم الأُولى. والواقع أن العاطفة الدينية كانت مُتقدة عند المصري في كل عصوره؛ فكان همه دائمًا أن يُحقق إرادة إلهه، فيقوم له بما عليه من الفروض الدينية ولا يرتكب أي إثم في حرم معبده. وكان يُخصص في كل بيت مصري حجرة تشتمل على مقصورة صغيرة فيها تمثال الإله أو صورته، حيث كان أفراد الأُسرة يُؤدون فروض العبادة ويقربون القربان، وكان يُنصب في الطُرقات أحيانًا معابد صغيرة، وتمد في الحقول موائد القربان ليضع عليها الفلاحون قرابينهم.

ومن المًحتمل أن مصر من هذه الوجهة كانت شبيهة بمملكة كاثوليكية بأوربا الحديثة، حيث يُصادف

الإنسـان في كـل خطـوة مـن خطواتـه تماثيـل القديسـين ومعابـدهم. حقًّـا إن المراكـز الدينيـة القليلـة الأهميـة لم يصل إلينا من آثار إلاّ النزر اليسير، والمعابد العظيمة لا تـزال خرائبهـا الضـخمة تُنبـئ عـن عظمتهـا ورونقهـا السالفين.

المعابد المصرية قبل الأُسرات

ولـيس لـدينا مـن الآثار مـا يـدلنا علـى شـكل المعابـد المصرية قبل الأُسرات إلاّ الصور والنقوش الهيروغليفية الصغيرة. ومن هذه نعلم أن المعبد كان عبارة عن كوخ صغير (حجرة صغيرة) مقام من الخشب أو خص من القصـب، وأمـام هـذا الكـوخ كـان ينصـب عمـودان، وعلى وجهة بابه لوحان مائلان من الخشب للرونق . وكانـت البقعـة المُقدسـة في المعبـد تُحـاط بسـياج حـتى لا يدخلها إلاّ من كان عنده جواز بذلك.

ارتقاء المعابد المصرية

وبابتداء عصر الدولة القديمة كان شكل المعبد المصري قد درج نحو الرقي بدرجة محسوسة تُميزه عما كان عليه في عهده الفطري، فأصبح يُشاد من اللبن ومن مواد أُخرى أشد صلابة كالحجر الجيري، بل الجرانيت أيضًا. وكـان يُـزين داخلـه بالعمـد وتُحلـى جُدرانـه بالنقـوش البارزة. ولا بُدَّ أن نعترف هُنا أننا لم نقف إلى الآن إلاّ على نـوع واحـد مـن المعابـد الـتي كانـت تُقـام في هـذا العهـد. وهـذا النـوع يختلـف اختلافًـا بيِّنًـا عـن النـوع

العـادي في ترتيبـه*. واقصـد بـذلك معابـد الشـمس المشهورة التي كانت تُشيدها فراعنة الأُسرة الخامسة في مـدافن «بوصـير» الواقعـة عـلى بُعـد عشـرة أميـال مـن جنوبي أهرام الجيزة. وقد كشف عن أحدها بين عامي ١٨٩٨ و١٩٠١ وأصبح كله ظاهرًا للعيان. ومُشيّده هو الملك «نو اسر رع». وهاك وصفه: يصل الإنسان إلى الربـوة الـتي أُقيم عليهـا المعبـد بطريق مُرتفـع تـدريجًا من المدينة الواقعة في الوادي، ثم يدخل الزائر من باب فخم ضخم يُؤدي إلى بهو عظيم مكشوف كان مُقامًا فيه مسلة عظيمة الحجم مُتكئة على بِناء مُغطى بِكُتل جميلة من الجرانيت الأحمر. وكان أمامها مذبح عظيم مُشيد من كُتل ضخمة من المرمر. وعلى يمين الداخل في المعبد ممر مسقف ينتهي بغرق ذخائر المعبد، وفيها كانت تُحفظ أواني التعبد وغيرها من الأشياء الثمينة. وعلـى يسـار الزائـر ممـر مثـل سـالفه يُحـاذي الجـدار الجنوبي، ثم ينعطف إلى جهة الشمال وينتهي بقاعدة المسلة؛ وعند هذه النقطة ينحني هذا الممر على شكل سلم حلزوني يُؤدي إلى مُسطح مكشوف. وكان عند قاعـدة المسـلة معبـد صـغير مُـزين بنقـوش بارزة دقيقـة

* ضربت صفحًا هنا عن معابد الأهرام التي كانت مُخصصة لعبادة الفراعنة في الدولة القديمة. انظر المحاضرة الرابعة.

الصُنع تُمثل الاحتفالات المُختلفة التي كانت تُقام في أعياد المُلك. ومن أهم هذه الاحتفالات عيد وضع الحجر الأساسي لمعبد الشمس. والظاهر أن هذا المعبد الصغير كان عبارة عن حجرة الملبس التي كان يستعملها فرعون عند الاحتفال بعيد تتويجه، فكان يتزين فيها بملابس الاحتفال الفاخرة على اختلاف ألوانها.

معابد الدولة الوُسطى لم يبق منها شيء يُذكر

أما المعابد العظيمة التي شُيدت في عهده الدولة الوُسطي (أي في النصف الثاني من الألف السنة الثانية قبل الميلاد) في أُمهات المُدن المُختلفة كطيبة و«قفط» ومدينة الفيوم و«بوبسطة» و«تنيس»، فلم تبق لنا الأيام منها معبدًا تامًا، إذ خربت كلها تقريبًا في عهد الهكسوس، ذلك العهد الذي سادت فيه الفوضى والاضطراب، وما بقى من انقاضها استعمله الفراعنة ثانية في بناء معابد جديدة. غير أنه مما لا شك فيه أن تخطيطها كان قد ارتقى إلى النمط الذي اتبع بعدُ في تخطيط المعابد في الأزمنة المُتأخرة. فلنجتهد إذن للوقوف على كُنه هذا التخطيط ونتصوره في مُخيلتنا:

وصف المعبد

كان يُؤدي إلى تلك البُقعة المُقدسة (المعبد) طريق داخل المدينة مرصوف، مُزين كلا جانبيه بتماثيل أبي الهول أو غيرها من الحيوانات الرابضة التي كانت

تُقدس عند المصريين. ويحيط بالمعبد جدار من اللبن. ويدخل الإنسان من بوابة عظيمة مُشيدة من الحجر لها طَنفٌ محفور عليه رمز الشمس المجنحة. وأول ما يعترض الزائر بعد اجتياز هذه البوابة «بيلون» عظيم: وهو عبارة عن باب ضخم ذي بُرجين مُشيد أمام وجهة المعبد الضيقة. وبعد اجتياز هذا «البيلون» يرى الإنسان نفسه في ساحة واسعة مكشوفة مُزينة جوانبها بالعمد وفي وسطها المذبح العظيم الذي كان يجتمع حوله الأتقياء في أيام المواسم والأعياد. وكان محظورًا على العامة أن يتجاوزوا حدود هذه الساحة إلى داخل المعبد. أما المعبد الحقيقي فواقع وراء هذه الساحة ذات العمد. وهو مُشيد على رصيف صناعي مُرتفع عن الساحة. ولا بُدَّ أن يشتمل على ثلاثة محال: الأول بهو صغير ذو سقف مُقام على عمد، ويليه بهو العمد، وكان هذا يُشاد عادة على شكل كنيسة ذات ثلاثة صحون مُتوازية أوسطها شاهق الارتفاع والصحنان الجانبيان مُنخفضان. ومن هذا البهو يصل الإنسان إلى قدس الأقداس وهو المقر الحقيقي للإله. وقد جرت العادة أن يشتمل قُدس الأقداس على ثلاث مقاصير متلاصقة. ففي وسطاها كان يُوضع تمثال الإله الأعظم (تمثال المعبود آمون) في طيبة مثلًا، وفي المقصورتين

الأُخريين كان يُوضع تمثالًا المعبودين المكملين للثالوث، ففي طيبة كانت الآلهة موت وإله القمر «خنسو».

تصميم المعبد كتصميم البيت

على أن تصميم المعابد المصرية في جُملته كان يشبه بيت المصري القديم؛ إذ كان الأخير يُقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام يلي الواحد منها الآخر: فالأول للاستقبال وهو ما يُقابل في المعبد بهو العمد، والثاني للولائم، والثالث خاص بصاحب البيت. وبالنظر لهذا التشابهُ بين المعبد والبيت، كان المصريون مُحقين كل الحق في تسمية المعبد «بيت الإله». وكما أنهُ من البدهى أن المصري النبيل كان لا يكتفي بثلاث حُجرات في منزله، كذلك جرت العادة أن تُشاد في معبد الإله حجر أكثر مما ذكرنا؛ فكان بهو العمد عادة مفصولًا عن قُدس الأقداس بقاعات أُخرى إضافية، وكان يُبنى حوله كذلك عِدة حُجرات صغيرة قد تبلغ نحو الاثنتي عشرة. وكانت المعابد في العصور المتأخرة خاصة، تشتمل على محراب مبني أمام قُدس الأقداس خِصيصًا للقارب المُقدس الذي يُوضع فيه تمثال خاص للإله.

تصميم معبدي الأقصر الكرنك مختلف عن المعابد السابقة

وخلافًا لهذه المعابد البسيطة التصميم كان هُناك معابد أُخرى أعظم حجمًا وأكثر إبداعًا في التركيب. وسأكتفي هنا بذكر معبدي الأقصر والخورنق (الكرنك) الذين لا يُمكن إرجاع نظام هندستهما إلى ما

وصفت آنفًا. ويُمكن تفسير وجه الشذوذ في هندسة هـذين المعبـدين بأنهما لم يشيدا على حسب تخطط واحد، بل كانا نتيجة تخاطيط عِدة وضعها معماريون مختلفون. وعلة ذلك أن كل فرعون من الفراعنة كان يجب أن يشيد لنفسهِ هيكلًا فخمًا على شكل جُزء مُضاف للعبد الأصلي فيُفاخر بذلك أسلافه. ولهذا السبب تجد أن معبد الكرنك له ما لا يقل عن خمس بوابات (شيدها ملوك عديدون) الواحدة تلو الأخرى، وأن معبد الأقصر بهِ ثلاث ساحات عظيمة.

مأوى الحيوان المُقدس

وقد جرت العادة أن يُخصص مكان للحيوان المُقدس الذي كان يتجسد فيه الإله على الأرض. فكان العجل أبيس معبود منف يتخذ مقامه على مقربة من معبد الإله فتاح وهو الإله الذي يتقمص ذلك العجل. وقد عني الملك «بستمتيل» بتجديد مأوى العجل ابيس، فصار يشتمل على ساحة مكشوفة يحيطها بهو يرتكز سقفه على عمد يستند عليها تماثيل الملوك والآلهة.

وكانت جدرانه كجدران المعبد مزدانة بالرسم والنقوش البارزة. كذلك كان في مدينة «ارسنيوي» من أعمال الفيوم بُحيرة على مقربة من معبد الإله «سيك». وكان القوم يعتنون بالمحافظة على التمساح في هذه البحيرة لأنهُ كان المظهر الذي يتجسد فيه الإله سبك.

التمساح وعبادته

وقد روى لنا في ذلك «استرابون» السائح الروماني الذي زار مصر في عهد الإمبراطور أغسطس، ما يأتي:

«كان التمساح يعيش على الخبز واللحم والنبيذ التي كان يُقدمها له الزوار الذين يفدون لمشاهدته. وقد رافقنا رب المنزل الذي كُنا بضيافته إلى البُحيرة ومعهُ فطيرة صغيرة وجزء يسير من اللحم المشوي وزجاجة نبيذ. وعند وصولنا وجدنا التمساح نائمًا على الشاطئ، فتقدَّم إِليهِ الكهنة، وفتح واحد منهم فمه، ودس آخر فيه الفطيرة، ثم أتبعها باللحم، وبعدئذٍ أفرغ زجاجة النبيذ أيضًا. وعند ذلك اندفع التمساح في الماء في الماء هائمًا إلى الشاطئ الثاني. ثم ظهر زائر آخر يحمل هدية كالسابقة فأخذها الكهنة منهُ وهرولوا حول البحيرة وأطعموها التمساح كما فعلوا من قبل.

المعبد مدينة صغيرة

وكان يوجد خارج المعبد الاصلي (في دائرة جدران السياج العام) عدة. مقاصير، ومساكن للكهنة، ومبان شاسعة خاصة بالفلاحة ومخازن للغلال، وحظائر، وحدائق وبرك. فكان المعبد ومرفقاته شبيهًا بمدينة صغيرة.

جدران المعابد تُغطى بالنقوش

ويُشاهد في المعابد المصرية أن المسطحات الملساء، كسطوح جدران البوابات والساحات والقاعات وغيرها من الأجزاء المُخصصة للعبادة، كل هذه مُغطاة

بالصور والنقوش الهيروغليفية وذلك من أقدم العصور، فكانت الجدران الخارجية كجدران البيلونات والساحات (أو بعبارة أُخرى كل أجزاء المعبد التي كانت عُرضة لأن يراها عامة الناس) ينقش عليها مفاخر فرعون الدنيوية: كالشجاعة التي أظهرها في ساحة الوغي ضد عدوه وتخليد الأعياد العظيمة التي أقامها، وغير ذلك من الحوادث الهامة في تاريخ حياته.

بعثة حتشبسوت إلى بنت

من ذلك أننا نرى مُخلدًا على جدار إحدى ساحات معبد الدير البحري في طيبة الغربية، تلك البعثة التُجارية التي أرسلتها الملكة حتشبسوت إلى بلاد بنت (الصومال) أرض الروائح العطرية، وعودتها إلى حاضرة الدولة تحمل كل أنواع التُحف والطرف. وكان الغرض الأول من هذه النقوش أن يتصور الناظر إليها مقدار ما كان عليه فرعون من قوة وجلال.

نقوش جدران المعبد الداخلية

أما جدران المعبد الداخلية فكانت موقوفة على تمثيل الاحتفالات الدينية التي تُقام داخله، فنرى عليها الملك مرسومًا بزيه الرسمي ماثلًا أمام الإله، يُقدم له البخور أو يصب الماء أو يهدي إليه نبيذًا أو لبنًا أو فطيرًا أو أطواقًا من الأزهار، وفي مُقابل ذلك يُكافئه الإله بالحياة (وهي أثمن هدية) في شكل إشارة هيروغليفية مدلولها «الحياة». وفي مناظر أُخرى نرى

فرعون تتوّجه إلهتا الجنوب والشمال، أو نرى إله المعبد الأكبر ينقش اسم فرعون على شجرة الجميز المُقدسة حتى يضمن بذلك تخليد حكمه. وكثير من هذه المناظر لم يرسم إلاّ لمجرد الزخرف، ولكن غيرها كان مُرتبطًا بالطقوس الدينية الخاصة بالجزء الذي هي فيه من المعبد. فكثيرًا ما نرى في حجرة الاستقبال الملك يصب عليه الإلهان حوريس وتحوت الماء المقدس، وبعد ذلك يسير إلى الحضرة الإلهية مُطهرًا من كل غبار الحياة اليومية: أو نراه في قُدس الأقداس وهو يُؤدى كل أنواع الطقوس الدينية أمام المركب المقدسة.

تشابه النقوش في كل المعابد

ولا بُد أن نعترف هُنا أن مُعظم هذه الرسوم والصور مُتشابه* لا يكاد يكون فيه تغيير وخاصة في معابد العصور المُتأخرة. ونرى هذا التشابه الممل بعينه في الكتابات الهيروغليفية المُرافقة للرسوم، إذ الواقع أنها صور مما يلقيه الملك أمام الإله وما يجيب به الإله الملك. فيحيط فرعون الإله علمًا مئات المرات أنه أحضر له الروائح العطرية والخُبز والنبيذ، ويجيبه الإله مِرارًا وتِكرارًا أنه «سيهبه كل الحياة وكل السكينة وكل الخلود وكل الصحة وكل سرور القلب»، أو أنه «سيطيل سني حياته أبديًا ويسوّده على عالَمٍ مُفعم

* يُلاحظ مثل ذلك فيما يُكتب من الآيات القُرآنية والأحاديث وغيرها على جدران المساجد — المُترجم.

بالسرور».

محتويات المعبد

أما الأواني المُقدسة التي كانت تُستعمل في العبادة، كالأباريق والطاسات والأوعية التي كان يُحفظ فيها كُتب الأدعية والصلوات، والمباخر وهلم جرا، فلم يبق لنا منها إلاّ النزر اليسير. فإن هذه الأدوات التي كانت تُحفظ في معابد البلاد العظيمة، والتي كان معظمها يُقدم هدايا من فرعون، رغم وفرتها، سقطت غنيمة باردة في أيدي غُزاة البلاد ولصوص المعابد في خلال الثورات العظيمة التي كانت تنتاب البلاد وتُقلبها رأسًا على عقب. وقد أصاب مثل ذلك السفينة المُقدسة وتمثال الإله، وهما أثمن مشتملات كل معبد. إذ كان تمثال الإله يُصنع غالبًا من خالص الذهب أو الفضة أو الشبه المذهب، أما القارب المُقدس الذي كان يحمل فيه الإله على الأعناق باحتفاظ مهيب، فكان يصنع من مواد ثمينة مُحلاة بالذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة. أما زخارف مباني المعبد فلا يزال باقيًا منها شيء وفير. إذ في كثير من المعابد ترى المسلات التي كان يقيمها فرعون على ما يظهر احتفالً بيوم تتويجه، لا تزال شامخة برأسها إلى يومنا هذا أمام مدخل بوابة المعبد. وكذلك نرى في ساحات المعبد وقاعاته تماثيل الآلهة والفراعنة لا تزال

قائمة ذات هيبة وجلال.

بناء المعبد لتخليد ذكرى فرعون

ويتضح من قراءة الرموز الهيروغليفية التي على هذه الآثار، أو التأمل في الصور والنقوش البارزة التي على الجدران، أن المعبد لم يُشيد إلاّ لتخليد ذكرى فرعون، وإنه هو الفرد الوحيد الذي منح شرف التقرب من الإله ومُخاطبته. والظاهر أن ذلك كان صحيحًا نظريًا، إذ كان للملك وحده الحق أن يخدم الإله بدون وسيط، وله كذلك أن يُشاهده ويُناجيه. أما في الواقع فكان الأمر عادة غير ذلك. إذ لم نسمع باحتكار الملك هذا الحق لنفسه إلاّ في أحوال نادرة. من ذلك أنه لما سار «بيعنخي» ملك أثيوبيا (بجيشه المُظفر) من جنوبي مصر إلى قلب الديار المصرية حوالي مُنتصف القرن الثامن قبل الميلاد، دخل مدينة «عين شمس» كغيرها من البلدان وزار فيها معبد الشمس الذائع الصيت.

«صعد الملك السلم ليرى إله الشمس في قُدس الأقداس، فوقف الملك هُناك مُنفردًا، ثم فض خاتم الزلاج وفتح مصراعي الباب، وشاهد أباه رع (إله الشمس) في قُدس الأقداس الفاخر. وشاهد كذلك قارب رع في الصباح و قارب «أتم» في المساء. ثم أوصد مصراعي الباب ثانية ووضع عليهما الطين وختمهما بالخاتم الملكي: وبعدئذٍ أعطى الأوامر للكهنة

قائلًا: أنا (وضعت هنا) خاتمي وليس لأي إنسان من الملوك الذين سيأتون بعدي أن يدخل ههنا».

الكهنة ينوبون عن فرعون في خدمة الإله

وكانت العادة المُتبعة أن الكهنة أيضًا يُناجون الإله باعتبارهم نُوابًا عن فرعون. وكان من واجباتهم أن يقوموا بأداء حاجيات الإله: فيلبسوه ويحملوه ويزينوه بحليهِ وينظفوا حجرته الخاصة – قُدس الأقداس – ويبخروها بالروائح الزكية. وإِذ كانت كل مُحادثة في البلاط مع فرعون تتطلب مراسيم وتقاليد صارمة، فلا غرابة إذا كانت مُناجاة الإله تستلزم ما هو أشد منها وأدق. وكان عند الكهنة كتاب طقوس ثابت ضابط لصيغ الاحتفالات والصلوات اللازمة للاقتراب من الإله وخدمته.

الشعائر الدينية

فكان لا بُد لكهنة طيبة اتباع أمون أن يُؤدوا ما لا يقل عن ستين شعيرة دينية، أما كهنة أزريس في مدينة أبدوس (العرابة المدفونة) فكانت واجباتهم أهون من ذلك، إذ كان عدد الشعائر التي يُؤدونها لا يتجاوز الست والثلاثين. وكان لكل احتفال صلاة خاصة تُرتل فيه، ولا بُد من إجادتها تمام الإجادة. وكثيرًا ما كانت هذه الصلاة تنقش على جدار المعبد نفسه فيستطيع الكاهن أن يقرأها من الجدار.

فمثلًا حينما كان يدخل الكاهن بهو العمد بالعرابة

المدفونـة وفي يـده المبخـرة كـان مـن واجبـه أن يُـردد الكلمات الآتية:

«مثلـت أمامـك أيهـا الواحـد العظـيم بعـد أن طهـرت نفسي

«ولما مررت بالإلهة «تفنت» طهرتني.....

«أنا كاهن هذا المعبد وابن كاهنه.

«أنا كاهن حضرت لأقوم بعمل ما يجب عمله ولم آت لأعمل ما لا يجب عمله».

وعند ما يصل الكاهن أمام المقصورة حيث يتخذ الإله مقعده، يجب عليه أولًا أن يفض الخاتم الطيني المُوصد بـه البـاب، وإذ ذاك يُرتـل العبـارة الآتيـة: «لقـد كسـر الطين ودمر الخاتم ليفتح هذا الباب، وكل ما أحمل من شر ألقي به إلى الأرض» ثم يقرأ تعاويذ أخري فينفتح أمامه الباب.

تزيين الإله

فيبدأ الكاهن بتحية الصل العظيم القائم على حراسة المعبود، ثم يدخل قُدس الأقداس، حتى إذا بلغ تمثال الإله شرع في تزيينه كما تُزيّن الأحياء تقريبًا. فيبدأ بخلع ثيابه ثم يزيل من جسده الدهان الأحمر القديم ويزينه بدهان جديد، ثم يأخذ في إلباسه ملابس جديدة. وهو في كل هذه الأعمال يقرأ الأدعية والصلوات جاعلًا

لكل عمل منها صيغة خاصة. ولا يزال بالمعبود يلبسه ويزّينه، حتى إذا جعله على أحسن هندام وأجمل رونق غادر مقصورته وسدّ عليه الباب بالخاتم مرة أُخرى. وكانت عملية التزيين الإلهي هذه تعمل كل صباح بنفس الإجراءات التفصيلية المُتقدمة ولزومها كلزوم تنظيف المعبد وتبخيره كل يوم.

إطعام الإله وإلباسه

ولم يكن الملبس والمسكن كل ما يلزم إعداده للإله، بل كان من الضروري قبل كل شيء مده بالمأكل والمشرب. وقد كان لذلك المكانة الأُولى في كل الازمنة. ففي بادئ الأمر كان يقوم بتقديمها أهل التقوى ومن أشربت قلوبهم حب الدين، إذ كانوا يُقدمون لإلهتهم باكورة ثمار حقولهم وحدائقهم، وكل ما لذ وطاب من خيرات بيوتهم. بيد أنه على كر الأيام تلاشت هذه الهدايا أمام القرابين العظيمة التي كان يُقدمها الملك إلى المعابد في جميع أنحاء البلاد: وفي مقدمتها الكميات الوافرة من البخور والأزهار لزينة المذابح، والشهد والخُبز، والفطير، والماشية والدجاج؛ وبخاصة الأوز، والجعة والنبيذ.

القرابين في الواقع تأكلها خدمة المعبد

على أنه في الواقع لم يستعمل من كل هذه القرابين في شؤون الإله إلاّ جُزء ضئيل جدًا وهو البخور ما يُقدم للناس من المشروبات. حقًا إن الذبائح كانت تُوضع

على موائد القربان في فناء المعبد، لكنها لم تكن تُحرق في النار كما كانت العادة عند أُمم أُخرى، والحقيقة أن مُعظم المأكولات والمشروبات التي كانت تُقدم للمعبد كان يأكلها الكهنة وصِغار المُستخدمين. أما القرابين الوفيرة التي تُقدم في أيام المواسم والأعياد، فكان جُزء عظيم منها تولم به الولائم لزوار المعبد. وبها يُظهر المعبود في معبده من كرم الضيافة لزواره ما يُظهره المرء في بيته.

الأعياد في المعابد

وكان لكل معبد أعياد كثيرة في كل سنة. وقد روى هيردوت أن المصريين كانوا إلى عهده يجتمعون مرات عِدة خِلال السنة ليقيموا الأعياد. وتمثل في هذه الاجتماعات الروايات الدينية. فيُمثل الكهنة الحوادث الهامة في تاريخ حياة الإله الذي يحتفل بعيده. ففي العرابة المدفونة مثلًا كانت تُمثل قصة الإله أزريس. وذلك بأن يسير موكب الإله من معبده بالمدينة إلى مقره الأزلي في الصحراء، وهُنا يُمثل الكهنة وغيرهم المعركّة العظيمة التي قضى فيها أزريس على أعدائه القضاء المبرم.

تزاور الآلهة في الأعياد

وكذلك كانت تُعقد احتفالات فيها يزور إله إلهًا آخر في معبده في موكب مُهيب، فيُقدم للإله الزائر وأتباعه الأطعمة من اللحم وأنواع الكعك. ومن هذه الأعياد

ما نعرف عنه شيئًا يسيرًا من النقوش التي على جُدران المعابد؛ كالاحتفال بعيد الضحية الذي يُقام تكريمًا لإِله الحصاد المُسمى «من» في نفس اليوم الذي يُحتفل فيه بعيد تتويج الملك.

عيد المعبودة باستت

ومنها ما وصلت إلينا عنه معلومات دقيقة، ككيفية الاحتفال بها في الأعصر المُتأخرة في مُدن الوجه البحري مثل بوبسطه، وبوصير، وسايس (صا الحجر)، وبوتو، وغيرها تعظيمًا لآلهة تلك المُدن. ومن أشهر هذه الأعياد عيد المعبودة «باستت» آلهة بوبسطة. فقد رُوي هيردوت أن المُحتفلين بهذا العيد كانوا يتقاطرون رجالًا ونساءً على هذه المدينة من أقاصي البلاد في زوارقهم. وقد كان هذا العيد آية في الأُنس والسرور، إذ كان الوافدون إليه يمرحون ويلعبون ويلهون طوال طريقهم إلى بوبسطة، وكان صدى الغناء والموسيقي يملأ سطح الماء، فالنساء يضربن على الدفوف والرجال يلعبون على المزامير وبعضهم يغنون أو يصفقون، وقد تنزل الجماعة منهم أحيانًا بقرية من القُرى التي يمرون بها فيقومون فيها بكل أنواع اللعب.

وعندما يصل الوافدون بوبسطة قِبْلَتهم يُقرّبون القرابين العظيمة؛ ويُقال أنه كان يحتسي في هذا العيد من الخمر أكثر مما يحتسي في كل البلاد في سائر العام، كما قِيل

أن عدد الزوار الذين اشتركوا في أحد هذه الأعياد بلغ ما لا يقلْ عن ٧٠٠,٠٠٠ نسمة. وقد يكون هذا العدد مُبالغًا فيه، غير أنه مما لا مشاحة فيه أن بوبسطة كانت تضم بين جدرانها في مثل هذا العيد من الزوار ما تضمه مدينة طنطا الحالية مثلًا أيام المولد الأحمدي.

مدلول الأغاني الدينية

وكان عدد التسابيح والأغاني التي ينشدها الكهنة ودهماء القوم مُعددين مناقب آلهتهم عظيمًا. وبعضها يثير شعورًا دينيًا طاهرًا ويُنبئ عن حماس شِعري يجد له مكانًا فسيحًا حتى في صدر القُراء في وقتنا هذا، غير أن المدلول الدقيق لِمُعظم هذه الأغاني يضع بكثرة تكرار العبارات تكرارًا مُملًا جًدا. وقد اقتبست لكم في محاضرتي الثانية نماذج من هذا النوع من الأدبيات؛ وربما يكون عندكم الميل لسماع شيء آخر لتكوّنوا لِأنفسكم فكرة عن شكل هذه القصائد ومحتوياتها.

تسبيحة للإله تحوت

وسأبتدئ بترجمة بعض أبيات من تسبيحة للإِله تحوت (وهو هرميس عند اليونان) وفيها يمتدحه القوم بأنهُ إِله العلماء ثم قاض: «إني آتي إِليك أيها الثور بين النجوم، أي تحوت، أنت أيها القمر الذي في السماء. أنت في السماء ومع ذلك يفيض بهاؤك على الأرض، شُعاعك ينير مصر.

الحمد لك أنت يا رب اللغة المُقدسة (الهيروغليفية)،

أنت أيها القاضي في السماء والأرض. أنت يا واهب الكلام والكتابة، ومانح السلع ومالئ البيوت (بالخيرات)، يا من يعلّم علم الآلهة، وما يجب نحوهم».

وكذلك يتجلى جمال التعبير وصدق الشعور في تسبيحة تُرتل خطابًا للإله «أمون رع» ملك الآلهة وفيها يُمتدح هذا المعبود بأنه هو الإله الأعظم الموجود في كل شيء، وهي:

تسبيحة للإله أمون رع

«يا إلهي يا رب كل الآلهة يا أمون رع طيبة

أمدد إلى يدك ونجني

أشرق لأجلي (كالشمس) أجبني ثانية

أنت الإله الأحد الذي لا شبيه له

أنت الشمس التي تشرق في السماء

أنت (الإله) «أتم» الذي برأ الإنسان

أنت تسمع دعاء من يدعوك

أنت تخلص الإنسان من يد القوى

أنت تمنح نسيم الحياة لما لم يخرج بعد من البيض للناس والطيور

أنت تخلق ما تحتاج إليه الفيران في أحجارها والدود والبراغيث»

الوظائف الدينية حق مُشاع في أول الأمر

ويُلاحظ أن كثيرًا من هذه العبارات ينطبق بوجه خاص على إله الشمس ويُشابه عبارات التسبيحة العظيمة التي وضعها الملك الزائغ أخناتون وهي التي أسلفنا الكلام عليها في المحاضرة السابقة.

لم تكن خدمة المعابد في أقدم عُصور الأُمة المصرية وقفًا على طائفة خاصة من الكهنة، بل كانت حقًّا مشاعًا لكل أفراد الأُمة، حقًّا كان لكل معبد خَدَمهُ الخاصة الذين يُقدمون له الضحايا ولا يفترون لحظة عين عن خدمته، غير أنه في الوقت نفسه كان لكل فرد من علية القوم فضلًا عن وظيفته الدنيوية وظيفة أُخرى دينية. وكان لهذه الأخيرة غالبًا علاقة بالوظيفة الدنيوية. مثال ذلك أن القُضاة كانوا غالبًا كهنة «معت» إلهة العدل، وكان حُكام الأقاليم غالبًا رؤساء كهنة المعبودات التي تحمي مُقاطعة كل منهم.

المرأة تكون كاهنة

وقد زعم هيردوت أنه كان مُحرمًا على المرأة أن تشغل وظيفة كاهنة سواء أكان ذلك لمعبود أو معبودة. وهذا قول لا نصيب له من الصحة فيما يتعلق بالعصور الأُولى من التاريخ المصري. فقد كانت النسوة وقتئذ يُستخدمن في المعابد، وكثيرًا ما نجد ذكر الكاهنات وخاصة في عبادة الإلهات كالإلهة حاتحور والمعبودة نيت.

الكهنة الرسميون

وفي عهد الدولة الوُسطى كان عدد الكهنة الرسميين لا يزال قليلًا بالقياس إلى غيرهم. ففي مُعظم الأحيان كان للمعبد كاهنان فقط، وإذا زاد على ذلك فلا يتجاوز الخمسة، يُضاف إلى هؤلاء طبعًا عُمال من الدرجات الصُغرى كالبوابين والحُراس والفعلة على اختلاف أنواعهم. وفي بعض المعابد كانت مناصب الكهنة الرسميين تشمل منصب «رئيس الكهنة» أو كما يُسميه المصريون أنفسهم «نائب الكهنة»، غير أن هذا المنصب كان يشغله عادة رجل من غير رجال الدين هو حاكم المُقاطعة، وذلك جريًا على عادة قديمة.

منصب رئيس الكهنة

فكان بذلك لهذا الحاكم السيادة السياسية والدينية في مُقاطعته. وأصبح من واجبه أن يسهر على صالح رعاياه من الوجهة الدينية. ولا شك أن إضافة هذه الوظيفة إلى عمله زادته شرفًا ورِفعة، كما أكسبته فوائد مالية وفيرة.

أعمال المُقرئ

يُضاف عامل آخر ذو مقام سام بين الكهنة الرسميين في كل معبد يُسمى المقرئ الأول، وكان يُعتبر عالمًا بالعلوم اللاهوتية في معهد الكهنة، وهو الذي عنده عِلم الكُتب المُقدسة ويعرف الكتابة ويجيد القراءة قبل كل شيء. وعمله أن يُرتل الكُتب المُقدسة جهرًا. وكان مُلمًا بأساطير الأقدمين مُتضلعًا في متون السحر،

ولا عجب إذن أن كان يُنظر إليه كأنه ساحر عظيم، كما لا غرابة في أن مُقرئي الكهنة في مصر في عهد الفطرة قد أُشْتُهِرُوا في الأساطير المُتداولة بأنهم أتوا بفضل حكمتهم بكثير من العجائب والغرائب والأشياء الخفية.

كهنة الساعة والفرق بينهم وبين الكهنة الرسميين

وكان عند المصريين عدا الكهنة الرسميين جيش جرار من الكهنة غير الرسميين أو كهنة الساعة كما يعبر عنهم المصريون أنفسهم.

وكانت تضمهم جماعة مُنتظمة دائمة تُنتسب إلى المعبد، وكل جماعة تُقسم إلى أربع فرق تقوم كل منها بخدمة المعبد مُدة شهر بالتناوب فتخدم كل واحدة ثلاث نوبات في العام. وكان لكل فرقة رئيس خاص وكاتب للمعبد ومُقرئ، أو بعبارة أُخرى كان أعضاء هذه الفرق مُتعلمين تعلمًا علميًا، ولا شك أنهم كانوا يعبدون في الحياة الملكية في صف الكُتاب أو المُستخدمين. وفي حين كان الكهنة الرسميون يتمتعون بمرتبات عظيمة يجبونها من دخل المعابد الوفير، كان كهنة الساعة يتقاضون مُرتبات ضئيلة جدًا. والحقيقة أن الجُزء الأعظم من دخلهم كان من وظائفهم المدنية، أما وظائفهم الدينية فكانوا يُؤدونها في مُقابل أجر زهيد جدًّا، يدلنا على ذلك ما وُجِدَ في دفاتر حساب الدولة

المُتوسطة. فقد ذُكِرَ أن دخل أحد المعابد كان ينشر شهريًا، فيتقاضى منهُ رئيس كهنة الساعة (أي رئيس الكهنة غير الرسميين) ثلاثة أسهم فقط، في حين أن رئيس الكهنة المُقرئين، وهو في الحقيقة أقل من سابقه رُتبة ومقامًا ولا يمتاز عنهُ إلاّ بأنهُ من الكهنة الرسميين، كان يتقاضى ضعفي ذلك المقدار أي ستة أسهم. يُضاف إلى ذلك أن هذا كان يتقاضى مُرتبه اثنتي عشرة مرة في السنة، أما أخوه من كهنة الساعة فكان لا يأخذ مُرتبه إلاّ ثلاثة أشهر في العام بالنظر إلى تناوب العمل بين الفرق كما أسلفنا.

قصر الوظائف على الكهنة الرسميين

والآن نذكر حقيقة ذات شأن في تاريخ المدنية، وهي أنهُ لما جاءت الدولة الحديثة التي أعقبت طرد الهكسوس من البلاد، وأخذت الديانة تجد لها مكانًا رحبًا ويعظم شأنها في نفوس القوم وحياتهم، فصلت فرقة الكهنة الرسميين وأصبح لا يُنازعهم فيها مُنازع. ومن البُدهى أن عدد هؤلاء قد ازداد بذلك زيادة عظيمة. فإن كثيرًا من الأعمال التي كانت من واجبات كهنة الساعة انتقلت بطبيعة الحال إلى الكهنة الرسميين؛ يُضاف إلى ذلك أن إدارة ثروة المعابد الوفيرة التي كانت ازدياد مُستمر، تطلبت استخدام عدد عظيم من العُمال.

رئيس الكهنة وأعماله

أما حدود عمل كل كاهن ونوعه فيُمكن الوقوف عليه من اسم وظيفته والألقاب الأُخرى التي يحملها. فمثلًا «النبي الاول» أو رئيس كهنة أمون» كان في الوقت عينه يحمل لقب «المدير الأكبر للأشغال» وكان ذلك يقضي بأن يأخذ على عاتقة أعمال البناء الشاسعة الخاصة بالمعبد، وأن يعمل على ما يكسبه (الإله) بهاءً في مقصورته. ومن ألقابه كذلك «قائد جيوش المعبود» ولذلك كان يقود جنود المعبد، ومثله في هذا كمثل رئيس الأساقفة في القرون الوُسطى بأوربا. ومن أعماله أيضًا رياسة المالية. فكان يدير حركة مالية المعبد، وهذا في الحقيقة عمل لا يُستهان به. ولم يقتصر نفوذه على معبد الإله أمون وكهنته، بل كان رئيسًا لكهنة إلهة طيبة، وكذا رئيسًا لكهنة جميع إلهة الشمال والجنوب. ومعنى ذلك أن كل كهنة البلاد كانوا تحت إشرافه، وأن في قبضته أكبر سُلطة دينية في كل البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

وقد عرف كيف ينتفع من تلك السطوة تمام الانتفاع، فإنهُ كلما خلا منصب رئيس الكهنة في معبد من المعابد الأُخرى، (كرئيس كهنة معبد الشمس في هليوبوليس) وما يليه من المناصب، لم ينصب فيها أحد إلاّ من وقع اختياره عليه. وبهذه الكيفية أصبح في يد

كهنة طيبة أموال طائلة فوق ما لهم من القوة السياسية العظيمة؛ إذ كان دخل المعبد القديمة العظيم يتدفق إلى خزائن هذه الطائفة وحدها. وسيظهر لنا جليا بعدُ ما عاد على الدولة من الأخطار من جراء ذلك.

حياة بكنختسو

ومن حسن المصادفات أن لدينا مصادر وثيقة عن الخطوات التي كان يدرج فيها الفرد حتى يرقى إلى أعظم رتبة دينية عند قدماء المصريين. فقد روى «بكنخنسو» الذي كان رئيسًا لكهنة أمون بطيبة في عهد رمسيس الثاني في القرن الثالث عشر ق.م، في تاريخ حياته الذي كتبه بنفسه، أنهُ تربي تربية حربية في أحد اصطبلات فرعون من الخامسة إلى الخامسة عشرة من عمره. وفي السادسة عشرة الحق بخدمة أشهر المعابد المصرية، فجُعل عندئذٍ كاهنًا صغيرًا. ولم ناهز العشرين اجتاز هذه الدرجة الدُنيا، فارتقى إلى الدرجة التي تليها وهي «اب الإله». ومكث في هذه الدرجة اثنى عشر عامًا. وفي سن الثانية والثلاثين رقى إلى درجة «نبي» فمكث «رئيس الكهنة الثالث» (نبيًا ثالثًا) مُدة خمسة عشر عامًا، فنبيًا ثانيًا مُدة اثنى عشر عامًا. وفي التاسعة والخمسين من عمره نصبه فرعون منصب «أول أنبياء أمون ورئيس رُؤساء كهنة جميع الآلهة». وقد أظهر نفسه في مركزه الجديد أبًا شفيقًا

لمرءْوسيه، فربى شُبانهم ومد يد المُساعدة لمن كانوا على شفا السقوط، وبذل عن سعة لمن عضهم الفقر بنابه.

على أنهُ لم يكن في مقدور كل فرد أن يرقى في حياته ذلك الرُقي الباهر الذي ناله بكنخنسو، إذ الواقع أن الأفراد الذين كرّسوا حياتهم للكهنوتية كانوا كأمثالهم في سائر أنحاء الدُنيا، يظلون طول حياتهم في وظائف صغيرة، ويقنعون بالبقاء بين جدران المعبد في سكينة وطمأنينة بعيدين عن هموم العالم وأحزانه، اللهمَّ إلاّ من منحهم الله مواهب عظيمة، أو من عضدهم ذو جاه ونفوذ.

زي الكهنة

وكان زي الكهنة في العصور الأُولى أيام كانت طائفة الكهنة الرسميين قليلة العدد، لا يختلف كثيرًا عن زي سائر الناس. ولم يكن بينهم من امتاز بملبسه إلاّ رؤساء المعابد الكُبرى، فكانوا يرتدون شعارًا مُعينًا شارة لعِظم مكانتهم. من ذلك أن رئيس كهنة فتاح كان يتحلى بحُلي خاصة في رقبته، مُزينة بصور حيوانات عجيبة الشكل ساذجة، يدل أسلوب صُنعها على أن منشأها لم يكن من العصر التاريخي، بل يرجع إلى أقدم عصور الفطرة. وكذلك كان بعض أفراد الكهنة يرتدون جلد فهد على أكتافهم بمثابة جزء من زيهم الرسمي.

مُحافظتهم على

ولما أخذ شأن الكهنة يعلو ويعظم في أعين القوم،

القديم

وازداد عـددهم وعظمـت قـوتهم في عهـد الدولـة الوُسـطى، شـرعوا يُوجهـون عنـايتهم تـدريجًا لجعـل ملابسهم تدل على أنهم طائفة خاصة مُتميزة عن سائر بني الإنسـان، وبقـوا كمـا بقـى قساوسـة العهـد الحـالي مُحافظين على ملابس العصور الأُولى الساذجة مُتجنبين طريـف الأزياء، وتخلـوا في الوقـت نفسـه عـن التحلـي بالشـعر المُسـتعار، الـذي كـان إذ ذاك الـزي السـائد، ومشوا في الطُرق مُحلقين رءوسهم مُحافظة على النظافة.

وفي العصـور المُتـأخرة بقـى الكهنـة مُتمسـكين بهـذه الظواهر بِشدة عظيمة أكثر من قبل. وذلك في وقت كانت المُحافظة فيه على الآداب من الأهمية بمكان، إذ كانـت روح القوميـة في النـزع الأخـير، وكـان قـوم يعملـون بشـده علـى أحيائهـا باتبـاع عوائـد أجـدادهم القديمة.

الكهنة يتمسكون بالنظافة

وقد روى لنـا هـيردوت بكـل صـراحه أن الكهنـة كـانوا يحلقـون الجسـم كلـه مـره كـل ثلاثـة أيام، حـتى لا تأوى الحشـرات جسـد مـن يخـدمون الآلهـة، وكـذلك كـانوا يلبسون أرديه من الكتان وأحذية من صُنع «ببلوس»، وحُرِمَ عليهم أن يلبسـوا غـير هـذه الملابـس أو ينتعلـوا غير هـذه النعال. وكانوا يستحمون مرتين بالماء البـارد نهارًا ومثلهمـا ليلًا. وغير ذلك كثير من العادات الـتي

كان يجب عليهم الخضوع لسُلطانها.

وظيفة الكاهن لم تكن وراثية

وقد أضاف هيردوت في هذا المقام أنه عند وفاة رئيس الكهنة كان يخلفه ابنه في عمله. حقًا أن توارث الوظائف من الأب للابن كان شائعًا، غير أن ذلك لم يكن قاعدة مطرده. ولم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ المصري في طائفة الكهنة الرسميين أن يضطر الابن إلى أن يحذو حذو والده في حرفته، ويحرم عليه الاحتراف بأي مهنه أُخرى. غير أنهُ يرجَّح أن الأب (كما يشاهد في كل عصر) إذا رأى نفسه يرتع في بحبوبة العز والرخاء من جراء وظيفته الدينية، ودّ من أعماق قلبه أن يرى ابنه أو أولاده ينعمون بها باقتفاء أثره فيها. وبهذه الطريقة يجوز أن بعض الامتيازات أو الوظائف الخاصة بقيت في أُسرة واحدة مُدة أجيال.

منابع ثروة المعابد من النذور والعطايا

وقد كان سد حاجات الإله العدة كالقرابين وبناء المعابد الضخمة، ودفع مرتبات طائفة رجال الدين الكثيرة العدد، مما لا يُمكن القيام به دون أن يكون لذلك منابع ثروة وفيرة، والواقع أن الفراعنة اعتادوا من أول الأمر أن يفيضوا على معابد البلاد الخيرات الجزيلة ويهبوها الضيع وغيرها من الأملاك المُتنوعة. هذا بالإضافة إلى ما كان يتدفق من الهدايا الوفيرة إلى خزائن الإله في ظروف خاصة، كالنذر أو أن يكون

الإله قد لحظ الملك بعنايته في أمر خطير الشأن.

أول نذر

وأول عطاء وعاه التاريخ من هذا النوع ما قدمه الملك زوسر (الأُسرة الثالثة) إلى «خنم» معبود مُقاطعة الشلال. فإن لدينا وثيقة مُطولة عن هذا النذر جاء فيها أن الفيضان انخفض سبعة أعوام في حُكم هذا الملك، فعم البُؤس، وانتشر الحُزن والأسى بدرجة قُصوى في أنحاء البلاد، وتمشى الخوف والجزع في قلب الملك ووليجته بحالة شنيعة. ولما لم يجد فرعون مخرجًا من هذه الضائقة لجأ إلى الحكيم «امحوتب» الذي صار بعدُ عند قدماء المصريين إله الطب، وطلب إليه أن يرشده عن المكان الذي «ينبع منه النيل» وعن المعبود الذي يُسيطر على تلك الجهة.

قصة قحط السنين السبع

ولما لم يكن في مقدور هذا الحكيم أن يجيب فرعون على الفور رجاه ان يمهله مُدة يغيب فيها كي يطلع على الكُتب المُقدسة في هذا الموضوع، ثم انصرف من عند فرعون ولم يلبث أن عاد إليه سريعًا وكشف له عن «العجائب الخفية» – عن الطريق الذي لم يره ملك من الملوك مُنذ عصور سحيقة. فروى أن النيل ينبع من مدينة في وسط المياه اسمها جزيرة الفيلة الواقعة على حدود بلاد النوبة السُفلى. وكان الماء عندها يُسمى «الفتحتين» وهي مهد النيل.

أما إله الجهة فهو المعبود «خنم» ويقع باب معبده في الجنوب الشرقي. وكذلك كان يُعبد هناك الإلهتان «ساتت» و«عنقت» زوجتا خنم؛ هذا فضلًا عن عبادة النيل نفسه والآلهة «شو» و«جب» و«نوت» و«أزريس» و«حوريس» والإلهتين «إيزيس» و«نفتيس». وتُوجد على مقربة من هذه الجزيرة على الشاطئ الغربي، جبال شامخة تشتمل على جميع أنواع الأحجار والمعادن الصلبة التي تلزم في بناء كل معابد الوجه القبلي والوجه البحري ومقابر الملوك وتنحت منها كل أنواع التماثيل.

والمقصود هُنا بالطبع هو الجرانيت الجميل الذي كان يقطع من أقدم العصور من المحاجر المجاورة لبلدة «سيين» (أسوان) الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل. يُضاف إلى ذلك أن كل أنواع الأحجار الكريمة والمعادن من ذهب وفضة ونحاس وحديد ولازورد وغيرها كانت تُستخرج من كلا شاطئي النيل ومن الجُزر التي في هذه البقعة من النهر.

فلما سمع فرعون تقرير امحوتب الحكيم امتلأ قلبهُ فرحًا وأمر بتقريب القرابين إلى آلهة وإلهات الفيلة الآنفة الذكر.

وقد رأى الملك منامًا في الليلة التي تلت هذا الحادث:

فرأى الإله «خنم» واقفًا أمامه. وبعد أن قدم إليه واجبات الاحترام والتعظيم أماط الإله اللثام عن نفسه قائلًا: «أنا الإله خنم خالقك وحاميك. أنا أعطيك المناجم والمعادن التي لم يكشفها أحد في كل عصور التاريخ والتي لا تزال بكرًا، لِتُبنى بها المعابد وتصلح ما أفسده الدهر منها، لأني أنا الخالق الذي ذرأ نفسه والمحيط الأبدي الذي ظهر أزليًا، أنا النيل الذي يفيض حينما يشاء، أنا مُرشد كل إنسان في عمله.. أنا أملك الفتحتين اللتين منهما يفيض النيل. أنا أعرف النيل... سأجعل النيل يفيض لأجلك. ولكن يفيض ماؤه في أي سنة من السنين، وستنوءُ الأشجار بأثقالها من الفاكهة وستنشرح أفئدة القوم بدرجة لم تُعهد في الأزمان الغابرة».

وعند انتهاء العبارة السالفة انتبه فرعون من منامه. ولما كان السرور قد ملأ صدره لما وعده به الإله، أصدر أمرًا بوقف كل إقليم الشلال الواقع على ضفتي النيل على الإله «خنم» اعترافًا له بالجميل.

ويُحتمل أن أمثال هذه المنح من الأرض كانت تُوهب للمعابد في كل العصور، غير أن مُمتلكات الآلهة في الدولة الحديثة ازدادت على الأخص لتمتعها بالنصيب الأوفر من الغنائم التي كان يجنيها فراعنة الأُسرة الثامنة

عشرة والتاسعة عشرة من حروبهم المُظفرة مع الممالك النائية. وكانت هذه الهدايا تُعتبر بمثابة جزية يستحقها الإله الذي على يده نال فرعون النصر. ولا تزال النقوش من عهد تحتمس الثالث وسيتي الأول باقية إلى عهدنا هذا وفيها بيان العطايا الفرعونية التي قدمها الملك إلى الكهنة.

مقدار ثروة المعابد

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد، وثيقة من أواخر حُكم رمسيس الثالث (حوالي ١١٥٠ ق. م)، منها يستطيع الإنسان أن يُكوّن فكرة صحيحة عن الثروة الطائلة التي كانت مِلكًا للمعابد المصرية في هذا العهد، فقد جاء* فيها أن مُمتلكاتها لا تقل عن ١٠٣١٧٥ خادمًا و٤٩٠٣٨٦ رأسًا من الماشية و٥١٣ حديقة و١.٠٧٤٤١٨ فدانًا من الأرض و٨٨ مركبًا و ٥١.٥ حوضًا لِلسُفن و١٦٩ بلدة بعضها في وادي النيل وبعضها خارجه. أما أتباع المعابد السالفو الذكر فيُحتمل أن بعضهم كان من أسرى الحرب، وبعضهم من الفلاحين الأرقاء أو الصُناع؛ وعليهم فلاحة الأرض، وحراسة قطعان الماشية، وكذلك كانوا يسخرون في بناء المعابد العظيمة كما كان يسخر بنو إسرائيل من قبلهم. وكان جم غفير منهم يضطرون

* ورقة هرس بالمتحف البريطاني.

أيضًا إلى دفع ضرائب من الذهب والفضة وغيرها من المحصولات الطبعية. وإذا قدرنا عدد الحقول الوفيرة التي كان يملكها الآلهة فإنه يحق لنا مع مُراعاة النسبة أن تُقرر أن جُزءًا عظيمًا من أرض مصر كان مِلكًا للموتى.

فإذا وازنا مُمتلكات المعبود أمون بالإحصائيات الحالية أمكننا القول بأنه كان يملك عُشر أرض مصر وما لا يقل عن ١ / ١٠٠ من عدد سُكانها. وكان يلي أمون في الثراء من الآلهة المصرية إله الشمس «رع» معبود هليوبوليس، ثم «فتاح» معبود منف. ومن ذلك يتضح أن الكهنة قبضوا على جانب هائل من ثروة البلاد جعل لهم في الوقت عينه سلطة سياسية عظيمة. وكانت نتيجة ذلك تشبه ما تراه في زماننا هذا في دول العالم وعلى الأخص دولة أسبانيا**.

رئيس الكهنة يتولى عرش مصر

وأصبح لكهنة أمون في النهاية النفوذ الأكبر في الدولة، حتى أنه بعد موت أخر الرعامسة لم يكن أمامهم عقبات تُذكر في تولي العرش، فقام أحدهم فعلًا ونحى بوارث العرش جانبًا وتقلد هو تاج المُلك. وهذا الحادث يُعد في تاريخ الكهنوت المصري قمة ما وصل

** انظر كتاب أوروبا الحديثة، جزء أول.

*

إليه رجال الدين من الجاه، وهو.. وإن لم تدم مُدة حُكمهم طويلًا، دليل قاطع على تغلب رجال الدين على الساسة؛ وكان في ذلك القضاء الأبدي على العظمة القومية.

المحاضرة الرابعة

فن السحر – الحياة بعد الموت

الاعتقاد في السحر وقوته

كان قدماء المصريين ومن جاء بعدهم من أبناء الشرق، مسلمين ومسيحيين على السواء، ممن ملأت الخرافات والخزعبلات عقولهم. ولذا نرى فن السحر قد لعب دورًا هامًا في حياتهم. فكانت التعاويذ الدواء الناجح الذي يطب به كل أنواع الشرور، والعلاج الذي يشفي الأمراض، والطريقة المُثلى التي يكتسب بها المحب رضاء حبيبه، فإذا تسنى لشخص أن يضع تماثيل مسحورة في بيت عدوه اعتقد أن ذلك إما أن يجلب له المرض أو يُسبب له عاهة.

أسبابه

وكانت التعاويذ التي تُستعمل في مثل هذه الأحوال تُفضل على غيرها إذا كان لها علاقة خاصة بحادث ما وقع في تاريخ الآلهة الخرافي. إذ كان القوم يعتقدون أن الطُرق التي استعملتها الآلهة واتت بنتيجة حسنة تأتي بالنتيجة عينها إذا استخدمها الإنسان في أحوال مُشابهة لها، وكان لأساطير الآلهة «أزريس» و«إزيس» و«رع» القدح المعلي في هذا الشأن. من ذلك أنه بعد أن

فجعت الإلهة «إزيس» بموت زوجها المُحزن وضعت ذكرًا في منافع الدلتا سمته «حوريس»، واتفق أنها ذات ليلة أثناء إيابها من الحقول وجدت ابنها فاقد الحياة مبلِّلًا الأرض بدموعه وبالزبد الذي كان يتدفق من شفتيه، جسمه هامد، وقلبه لا حراك به، وجميع أعضائه فارقها نبض الحياة، فعزت هذا إلى لدغة عقرب. ولم تر تلك الأُم المحزونة البائسة ملجأ تلجأ إليه ولا عونًا تستعين به إلاّ إله الشمس، فلبى نداءها ووقف سير سفينته في السموات، وأرسل إليها «تحوت» إله الحكمة ليخلص ابنه فأعاده «تحوت» هذا إلى الحياة بتعاويذ سحرية. لذلك اعتقد القدماء أن هذه التعاويذ بعينها التي شفت «حوريس» الطفل تشفى أي إنسان من لدغة العقرب.

اسم الإله الأعظم أكبر قوة سحرية

على أن أكبر قوة سحرية كانت وقفًا على الذين يعلمون الاسم الخفي للإله الأعظم «رع» الموجود في كل شيء. وقد مكث هذا الإله زمنًا مديدًا مُحافظًا على اسمه الخفي لا يعلمه أحد غيره إلى أن تمكنت «إزيس» الساحرة العظيمة من استلاله منه بحيلة، ومن وقتئذ أصبح لها سُلطان قوي وبطش عظيم. وقد وضحت كيفية وصولها إلى ذلك في خرافة قديمة. وهذه الخرافة تعيد لنا سيرة الإله «رع» الهرم رب الإلهة والناس. وكان وقتئذ قد بلغ

من الكبر عتيًا، وذهب عنه بعض روعته وجلاله، وكانت «إزيس» بوجه خاص لا تعترف بعد بسلطانه، وترغب في أن يكون لها ما له من النفوذ والقوة في السماء والأرض.

إزيس تحتال لمعرفة هذا الاسم

ولم تر للوصول إلى ذلك إلاّ طريقة واحدة، وهي أن تحفظ كل أسمائه المُتعددة التي كان لا يعلمها إلا هو والتي بها صار له السلطان على العالم. فدبرت أحيولة لتستولى بها على هذا السر، بأن أخذت شيئًا من اللعاب الذي كان يلقيه على الأرض، ولاكته بطين، وصورت منه ثعبانًا، وألقته في الطريق الذي كان الإله مُغرمًا بالمرور به في خلال تجواله في دولته. وبينما كان «رع» مُتجولًا برفقه أتباعه من الآلهة لدغه هذا الثعبان، فصاح من شدة الألم حتى بلغ صياحه عنان السماء؛ فسأله أتباعه والوجل ملء قلوبهم: ما الذي يُؤلمك؟ ولكن لم يكن في مقدوره إجابتهم. وأخذ فكاه يصطكان وسرى السم في عروقه. ولما هدأ روع الإله الأعظم نادى حاشيته قائلًا «تعالوا إليّ يا من برأتهم من لحمي، أنتم أيها الآلهة الذين خُلِقوا مني، لقد ألحق بي الضر شيء مُؤذِ يشعر به قلبي ولا تراه عيناي. ذلك شيء لم تصنعه يدي، ولا أعرف أي يد صنعته. وإني لم أشعر بمثل هذا الألم طول حياتي، ويُخيل إلى أنه لا يوجد مرض أشد من ذلك. أنا أمير وابن أمير. أنا الذي له أسماء عِدة

وأشكال مُتنوعة، صورتي تظهر في كل إله. وكان أبي وأمي يتكلمان باسمي. ثم أخفاه (الاسم) الذي أوجدني في أعماق قلبي، حتى لا يكون لأي سحر سلطان عليّ، ولكن واعجباه، بينما كُنت مُتجولًا أتفقد أحوال مخلوقاتي في أنحاء دولتي لدغني شيء لا أعرفه، هل هو نار؟ هل هو ماء؟ إن قلبي مُشتعل من شدة الاحتراق، وجسمي يضطرب، وكل فرائصي ترتعد، فليحضر إليّ أبناء الآلهة الذين ينطقون بالحكمة وتمتلئ أفواههم فهمًا وتصل قولتهم إلى السماء!».

عندئذ أتى الآلهة والحزن ملء قلوبهم، وكذلك حضرت «إِزيس» صاحبة ذلك الجُرم، وهي التي تنفث من فيها ريح الحياة، وتشفي عزمانها كل ألم وتحيي كلماتها الموتى، فقالت: «ما الذي يُؤلمك؟ ما الذي يُؤلمك أيها الأب المُقدس؟ لقد جلب لك ذلك المرض ثعبان مخلوق من مخلوقاتك، قد رفع رأسه ضدك، ولكن كل ذلك يزول أمام قوة السحر، وسأقضي عليه أمام طلعتك البهية».

ثم وصف لها الإله نوع آلامه، فأجابته «إِزيس»: «اذكر لي اسمك أيها الأب المُقدس، فإن كل من يدعي باسمه يعيش حتمًا. فأجابها «رع» قائلًا: أنا الذي برأت السموات والأرض، وخلقت الجبال وكل حي عليها، خلقت الماء والمحيط الأزلي العظيم. أنا الذي خلقت

السموات وسر أُفقها، ومنحت الآلهة أرواحهم التي في صدورهم. أنا الذي إذا فتح عينهُ يمتلئ العالم نورًا، وإذا أغمضها يخيم الظلام. أنا الذي بأمره يفيض النيل، ومع كل ذلك لا تعرف الآلهة اسمه. أنا الذي خلقت الساعات والأيام. أنا الذي أرسل السنين، وحد مواقيت الفيضان. أنا الذي أضعُ النار الحية، «خيري» في الصباح و«رع» وقت الظهيرة و«أتم» عند الغروب.

بيد أنهُ مع هذا لم تُخففّ وطأة السم، بل ازداد الوجع وبقى الإله الأعظم يتململ من شدة المرض. عندئذٍ قالت «إِزيس» للإله «رع»: «هذا الذي نطقت به ليس باسمك. اذكر لي اسمك تذهب عنك الآلام، لأن من يذكر اسمه يعيش». ثم أخذ سعير السم يشتد لدرجة يتضاءل أمامها لهيب النار. فقال جلالة الآله «رع»: «اقتضت إرادتي أن تفحصني الإلهة «إزيس» وأن ينتقل اسمي من صدري إلى صدرها».

عندئذٍ أخفى الإله نفسه عن الآلهة، وأصبحت سفينة الأبدية (سفينة الشمس) خاوية. وقد أخذ الاسم منهُ بطريقة غريبة، وحفظتهُ الإلهة «إزيس». ثم كررت رقية خففت آلام السم، وعادت إلى «رع» صحته ثانية. وبذلك أصبحت إزيس، الإلهة العظيمة وسيدةُ الآلهة، تعرف الاسم السحري الخفي لإِله الشمس. ومن وقتئذٍ

ساد الاعتقاد أن في قدرة أي إنسان أن يشفي سم الأفاعي بالرقية التي تلتها على الإله الأعظم.

أما اسم رع الذي وقفت عليه الإلهة وقتئذٍ فمجهول لنا، وإذا حكمنا بما لدينا من التعاويذ التي في المتون المصرية، لم نكد نجد حكمة عميقة مكنونة بين ثناياها. إذا كانت القاعدة أن السحرة يتمتمون ألفاظًا لا معنى لها، ويختارون أصواتًا مُعينة يقصدون التأثير بغرابتها أو شذوذها.

ويرجع عهد كل الفنون السحرية إلى أقدم العصور التاريخية، ففي النقوش الدينية القديمة المعروفة عند المُؤرخين بمتون الأهرام، نجد الرقية للشفاء من لدغة الحية مثلًا قد انتشرت انتشارًا عظيمًا في ذلك العهد.

يرجع عهد استعمال السحر إلى أقدم العصور

وفي نهاية الدولة الحديثة عندما تسرَّب إلى الديانة الفساد المُستمر وصارت عبارة عن تكرار جمل محفوظة، أصبح للسحر القدح المعلى في حياة القوم الدينية. فكان كلما أسرع الذبول إلى شجرة الدين النضرة، ازداد إيناع الأعشاب الضارة المُلتفة حولها من الخُزعبلات والخُرافات.

التطير والتفاؤل بالأيام

ومن أشهر الخُرافات ما يُلاحظه القوم عن الأيام، إذ كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن أيامًا مُعينة من السنة تكون

سعيدة بوجه خاص، وأُخرى يُرافقها النحس. وفي وقتنا هذا يعتقد الكثيرون أن يوم الجمعة، وهو يوم صلب المسيح، يوم شُؤم؛ وليس من الصواب أن يبتدئ الإنسان فيه سفرًا بعيدًا أو يشرع في عمل خطير. وعلى مثل ذلك كان للمصريين أيام معدودة مُعلَّمة، وقعت فيها الحوادث الهامة في تاريخهم الخُرافي.

ففي اليوم الأوَّل من شهر أمشير رفعت السماء إلى أعلى عليين، أي فيه حدث الخلق الحقيقي للعالم، لذلك كان طبيعيًا أن يُعد هذا اليوم يومًا سعيدًا، كما عدَّ يوم ٢٧ هاتور، وهو الذي تمَّ فيه الصُلح بين ست وحوريس وقسما الأرض بينهما كما جاء في الخرافة المنسوبة إليهما. أما يوم ١٤ طوبة فعلى العكس كان يوم شؤم، إذ فيه ندبت الأختان إزيس ونفتيس أخاهما أُزريس؛ ولذلك لا تُستحبُّ فيه الموسيقى وكل أنواع الغناء. وكذلك كان عندهم أيام سود مُعينة تُؤثر في المستقبل؛ فاعتقدوا أن الطفل التعس الذي يُولد يوم ٢٣ بؤونة مصيره أن يقع فريسة للتمساح. وكذلك كل من يُولد يوم ٣ كهيك لا بُد أن يصم، وكل من وُلِدَ في العشرين من الشهر عينه مصيره إلى العمى. أما من وُلِدَ في ١٩ بؤونه فهو سعيد الحظ: كُتِبَ لهُ ألاّ يموت إلاّ بعد حياة طويلة.

وقد أكّد لنا «هيرودوت» كل ذلك بقوله «نَسب المصريون كل شهر وكل يوم لإِله خاص وتبينوا مصير كل فرد من يوم ميلاده: يعرفون منهُ كيف يموت وماذا تكون حالته في الحياة».

ويظهر أن العرافة والتنبؤ بالغيب بالمعنى الحقيقي لم يكن لهما شأن يُذكر عند قدماء المصريين. وغاية ما وصل إلينا في هذا الموضوع إشارات عرضية إلى «هتافات الآلهة» التي كانت تنبعث من تماثيلهم. ومن الغريب أن هه الهتافات لم تظهر إلا في عهد انحطاط الديانة المصرية؛

هتافات الآلهة

ففي عصر الأعصر المُتأخرة بمدينة طيبة، صار تمثال المعبود أمون «ملك الآلهة الأعظم» هو الواسطة في الفصل في الأمور حتى في مهامِ شئون الدولة. فكان يُحمل في سفينته على اعناق الكهنة من مسكنه قدس الأقداس. ثم يُلقى عليه رئيس الكهنة أو الملك الأسئلة التي يُراد الإجابة عليها، فيجيب الإله بحركات خاصة، وقد يجيب أيضًا ببعض أصوات أو كلمات. ولا شك أن الكهنة كانوا يعرفون كيف يُساعد الإله في الإجابة؛ فكانوا يتخذون لذلك خيوطًا خفيّة، بل قد يعدون لذلك آلة ناطقة يخبئونها في سفينة الإله. وكانت الأجوبة تستنطق بهذه الطريقة عينها في معبد «زوس أمون» الذائع الصيت في واحة أمون «سيوة الحالية». زار

الإسكندر الأكبر هذا المكان المُقدس كما هو معلوم للجميع، فوصف بعض شُهاد عيان من بين الجم الغفير الذين كانوا في وليجته الكيفية التي أخذ بها رأْي تمثال الإله: وذلك أنه كان يُحمل في زورق من خالص الذهب على أعناق الكهنة، كما كان الحال في مصر، ثم يسيرون بالزورق حسب إرادة الإِله بإشارة منهُ في أي جهة شاء. وكان يسير في هذا الاحتفال جم غفير من النساء والبنات يرتلن آيات المدح ويُمجَدن اسم الإله بأشعار ورثت عن الأجيال الخالية. أما إجابة الإله فكان يُمكن قراءتها من خطا الكهنة، إذ كان القوم يعتقدون أنهم مُسيّرون بإرشاد الإله المحمول فوق أعناقهم. وكما كان للسحر شأن عظيم في حياة المصري الدنيوية كما شاهدنا، كذلك كان له مكانة خطيرة جدًا في حياته الآخرة؛

شأن السحر في الآخرة

إذ كان القوم يعتقدون أن كل سعادة في الدار الآخرة، بل مجرد بقاء الإنسان حيًّا بعد الموت، يتوقف في الجملة على معرفة عدد عظيم من الرُّقي والتعاويذ وكيفية تطبيقها. وكأن آراء المصريين عن الحياة بعد الموت مرآة تجلى فيها إخفاقهم في التغلغل في دروس المسائل الدينية للوصول إلى نتيجة منطقية، كما تجلى فيها تبلبل الأساطير الدينية عندهم. ولا شك أن من لم تجد

السفسطة سبيلًا إلى عقله يرى عادة في انقضاء الحياة فجاءة سرًا لا يقوى على فهم كنهه، فهو لا يستطيع أن يتصور كيف أن أحد أقربائه الأعزاء كأبيه أو أمه أو زوجته المحبوبة أو أحد أخواته قد قضى نحبه في هذه اللحظة الواحدة، وفارقه إلى الأبد. وما ذلك إلاّ لأن شعورًا قويًا بالحياة يُقاوم بكل شدة تلك النظرية القائلة بفنائها وعدم بعثها ثانية على الاطلاق.

الحياة بعد الموت

والواقع أن السلوى الوحيدة التي يُمكن الإنسان أن ينعم معها بالحياة، هي اعتقاده أن نفسه خالدة بالبعث مع ما يراه من موت إخوانه حوله كل يوم. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي لا تُنفر الإنسان من الموت. وعلى هذا الزعم سعى قُدماء المصريين كما سعى غيرهم من الأُمم القديمة، وكما تسعى أُمم العالم الآن، لفهم أسرار الموت وخباياه الغامضة.

ويجب الاعتراف بأن قدماء المصريين قد اختلفت أفكارهم في كل زمان ومكان في كيفية هذا البعث ومكانه، فتضاربت آراؤهم في هذا الموضوع تضاربًا عظيمًا، واختلطت كأنها كرة من الخيط اشتبكت خيطانها. وكثيرًا ما يجد القارئ في متن واحد بل في دعاء واحد أو رقية واحدة المُتناقضات جنبًا لجنب.

تضارب الآراء

على أنه لا ينبغي أن ندهش لمثل ذلك كثيرًا، لأننا لو

في البعث

نظرنا في موعظة من المواعظ التي يلقيها قساوسة عصرنا هذا في الجنائز، وأردنا أن نتفهم من خلال سطورها العقيدة المسيحية عن الآخرة، لرأينا أمامنا موردًا غزيرًا من الآراء التي يجب أن نستخلص منها مرغوبنا، هذا فضلًا عن أن بعض هذه الآراء قد ورد ذكره على سبيل المجاز.

الحياة الآخرة كالحياة الدنيا

وكان أكثر العقائد رواجًا عن البعث والنشور وأعظمها انتشارًا، بل وأقدمها عهدًا عند المصريين العقيدة القائلة بأن الإنسان سيحيى بعد الموت حياة أُخرى تُماثل الحياة الدنيا في جميع أحوالها بدون تغيير في الشكل. فيبقى الرجل والمرأة والشيخ والطفل في آخرتهم كما كانوا في حياتهم، وموطنهم الجبانة ومنزلهم القبر. وهناك يُسيطر الرجل على زوجته وأولاده، ويخدمه خدم من الذكور والإناث. وكذلك يُتاح له في حياته الأُخرى كل ما يجلب عليه الفرح والسرور في دنياه. ومن الضروري له قبل كل شيء أن يأكل ويشرب، فحياته الآخرة موقوفة على ذلك كما توقفت عليه حياته الأولى؛ وبدونه يُعاني ألم الجوع وحرقة العطش. وإذا أراد افتداء نفسه من الموت اضطر إلى حفظ رمقه بأقبح الأوساخ والأقذار، وذلك بلا مراء موت ثانٍ.

وكما احتاجت الآلهة أن تُزود بالقرابين من المأكل

والمشرب، كذلك كان الحال مع الأموات. فكان أول واجب على أهل الميت أن يُقدموا له كل ما يحتاج. وكان أهل اليسار من الأقدمين يحبسون المال على قبورهم، وينصبون الكهنة لأداء القرابين اللازمة لها.

حاجات الميت

أما الأشياء التي كانت المحصولات الطبيعية تعجز عن أدائها فكان يسعى إلى قضائها بالسحر والصلوات. من ذلك أَن أربعة آلهة، (وهم المُسمون أولاد حوريس) كانوا يقومون بحراسة أحشاء الميت وإبعاد الجوع والظمأ عنه. وكان من واجب كل مؤمن يمر بقبر أن يذكر صاحبه بخير، وكانت الكتابة التي على كل قبر تتطلب من المارين قراءة تعويذة الترحّم التي تضمن للميت موردًا من المأكولات، وهي كما يأتي: ألف أبريق من الجعة وألف رغيف من الخبز وألف رأس من الماشية وألف أوزة لروح فلان.

عالم الموتى وآلهتهم

وكان الأموات يُؤلفون مُجتمعًا خاصًا بهم في مأواهم الأخير وسط الصحراء، وموقعه عادة في الجهة الغربية على شاطئ النيل الأيسر، ولهم إله خاص يحكمهم. وقد جرت العادة أن يكون إله الجهة هو المسيطر على الموتى أيضًا أي الحاكم «على أولئك الذين يقطنون الغرب». فكما كانت مقاليد أمور الأحياء موكولة إليه، كذلك كانت شؤون الموتى في رعايته، ويسمح لرعاياه الأموات

أن يُشاطروه القرابين التي توضع على مائدته. وكان هُناك عدة مُدن اختصت الموتى فيها بآلهة مُعينة. ففي مدينة منف كان إله الموتى يُدعى «سكريس»؛ كما كان يحرس جبانتها الإله أنوبيس الذي ظهر في شكل ابن آوى. ولما كان من عادة هذا الحيوان الطواف حول الجبانة ليلًا، كأنه الطيف في الصحراء يحرس القبور ومن فيها في ظلمات الليل، اعتقد المصريون أن الإله يفعل ذلك أيضًا مُمثلًا في هذه الصورة عينها. غير أنه مُنذ الأعصر الأولى تضاءلت كل آلهة الموتى حتى صارت كأن لم تكن؛ وحل محلها إله واحد أصبح من ذلك الوقت إله الموتى العام في كل مصر، وهو «الرئيس الأعظم لأهل الغرب» أزريس. وسنتناول الكلام عليه بعدُ.

الميت خارج قبره

وكان المصري يعتقد أن الميت لا يبقى سجينًا في قبره المُظلم بل يكون حُرًا أثناء النهار، يُغادر قبره الضيق ويتجول كيف شاء على الأرض. ولكن كان لا بُد له أن يأخذ الحذر لنفسه مخافة أن ينقض عليه أعداؤه المؤذون من الأفاعي السامة والتماسيح والعقارب، فكان لزامًا عليه أن يتسلح بالتعاويذ السحرية التي تقيه شر هذه الأعداء.

ميل الميت لأخذ الأحياء

وقد يصطدم الميت مع الأفراد الذين لا يزالون في ميعة الشباب، فيحسد الأحياء على سعادتهم، ويسعى في

أو إيذائهم جذبهم إلى حافة الموت ليصيروا له خلانًا جُددًا في الغرب؛ وكان يعتقد نجاحه العاجل في المكان الذي يُخيم فيه المرض، لذلك كان ظهور الميت فيه مدعاة للخوف والفزع. فكانت الأُم المحزونة القلب تراه ينسل إلى البيت بوجه مُتحول وهي جاثية بجانب فراش طفلها المريض فتُخاطبه بكل جسارة قائلة:

هل أتيت لتُقبل هذا الطفل؟ أنا لا أسمح لك أن تُقبله

هل أتيت إسكاته؟ أنا لا أسمح لك بإسكاته

هل أتيت لتلحق به الأذى؟ أنا لا أسمح لك أن تُؤذيه

هل أتيت لتأخذه؟ أنا لا أسمح لك بأخذه

وكانت الأُم تعرف دواء واقيًا تعطيه لطفلها، يدخل في تركيبه: أعشاب، وشهد، وعظام أسماك. فإذا ما رأى الميت هذه العقاقير هلع فرقًا وولى الأدبار.

وأحيانًا كان الداعي الأكبر الذي يدفع الميت إلى وجوده بين الأحياء، هو حب الانتقام منهم، فكان جل همه أن يصب عليهم كل أنواع المصائب وبخاصة المرض. واتفق أن ضابطًا فقد زوجه ولم يمض طويل زمن حتى لازم الفراش، فأخبره أحد السحرة أن مرضه هذا يُحتمل أن يكون من عمل الراحلة العزيزة.

فكتب لها رسالة ووضعها ووضعها في قبرها، وهي مُؤثرة

في بابها وغريبة في نوعها، وهاك نصها:

رسالة مريض إلى زوجته المُتوفاه يستعطفها

أي جُرم اقترفت معك حتى أصير في مثل هذا الشقاء!

ما الذي فعلته بك حتى تسلطي عليَّ يديك الآن؟

هل عملت شيئًا أخفيته عنك مُنذ أصبحت زوجك إلى هذا اليوم؟

لقد صرت زوجتي منذ كنت لا أزال في ميعة الشباب، وكنت دائمًا بجانبك.

ولما تقلبت في أنواع الوظائف والأعمال المالية بقيت كذلك مُخلصًا لك، ولم أتركك أو أدخل على قلبك الحزن.

ثم اذكري أنني حينما كنت ألقي التعليمات على ضباط فرعون من المُشاة والمحاربين في العربات كنت آمرهم أن يقتربوا منك ليصارع الواحد منهم رفيقه أمام عينيكِ. وكذلك كانوا يحضرون كل شيء طريف ويقدمونه لك.

ولما حل بك المرض ذهبت إلى رئيس الأطباء فجهز لك الدواء وأدى كل ما ترغبين فيه. ولما أراد فرعون مصر أن أرحل معه إلى الجنوب كان قلبي وفكري معكِ.

وبقيت مدة ثمانية الأشهر التي فارقتك فيها لا يهنأ لي طعام ولا يلذ لي شراب. ولما عدت إلى منف (وفي خلال

هذه المدة توفيت المرأة) رجوت فرعون في العودة إليكِ، فجئت هنا، وحزنت وقتئذٍ أنا وسائر أهلي عليكِ حزنًا شديدًا أمام بيتي.

وفي اعتقادي أنه ليس ثمة حاجة إلى زيادة شيء على هذه الصورة الخلابة الغريبة، كما أنه لا حاجة لتصوير فكر المصري وشعوره بأكثر مما جاء في هذه الرسالة من الوصف الجليّ الدقيق.

تمثيل الروح على هيئة طائر

واعتقد المصريون ككثير من أُمم العالم الأُخرى (كالإغريق) أن مخلوقًا آخر محسوسًا يأوي جسم الإنسان ولا يُرى في الحياة الدنيا. تلك هي الروح وتُسمى عندهم «باي». وكانت تُلازم الجسم دائمًا في الحياة الدنيا وتفارقه عند الموت. وقد ألف المصريون تمثيلها بالطائر مالك الحزين، ثم مثلوها في الأعصر المُتأخرة بطائر له رأس إنسان فيه ملامح المُتوفي. وقد نقل اليونان عن المصريين تلك الطيور التي تُمثل الروح، وكثيرًا ما ظهرت صورها في الفن الإغريقي.

حراسة الروح للجسم

وكان لا ينبغي أن تبقى هذه «الروح الحية» بعيدة عن جسم صاحبها بعد الموت، بل لا بُد من تركها حُرة لتعود إلى حجرة المُتوفى وتبقى مع الجسم، وخاصة أثناء الليل حينما تحوم الشياطين حول الجبانات. ولهذا السبب كان من الضروري للروح أن تستطيع تمييز جثتها

من بين الجُثث المدفونة بجوارها، ولتحقيق هذا الغرض بذل المصري مجهودًا عظيمًا.

الكا وعملها

وكان الإنسان في نظر المصريين يشتمل على أجسام نورانية غير الروح، ويتعذر علينا أن نجد باليقين علاقة هذه الأجسام بالروح، وإنما نعرف أن أهمها «الكا» ويرد ذكرها كثيرًا في المتون الدينية. وفي اعتقادي أنها ليست كما يزعم الكثيرون صورة نورانية من الإنسان أو مظهرًا آخر له، بل هي ملك أو جنية تحرسه، وتولد «الكا» مع الإنسان، وتُرافقه طول حياته من غير أن ترى. وتحرسه بعد مماته.

تشكل الميت بقوة السحر

ذكرنا آنفًا اعتقاد المصريين أن الميت يستطيع مُفارقة قبره نهارًا، بل اعتقدوا أنه يقدر على أكثر من ذلك، فكان في قدرته أن يتشكل بأشكال مُختلفة حسب رغبته، فيتحول إلى صورة أي مخلوق أراد، غير أنه كان لزامًا عليه أن يعرف التعويذة السحرية المُلائمة للصورة التي يختارها. فكان يتحوَّل إلى بجعة أو صقر أو مالك الحزين أو كبش أو تمساح أو زهرة بمجرد تلاوة التعويذة.

تقمص الأرواح فكرة مصرية قديمة

ولا مشاحة في أن علماء اليونان الذين قدموا إلى مصر في الأعصر المتأخرة في طلب الحكمة من معاهد مصر الدينية وقفوا على هذه الأفكار والآراء. ولا يبعد أن فكرة تقمص الأرواح التي كان يُؤمن بها فلاسفة عدة

أمثال فيثاغورس وأفلاطون يرجع مصدرها إلى قدماء المصريين. على إننا إذا بحثنا النظريتين من أصولهما نجد أنهما يختلفان تمام الاختلاف. فكان المصري يعتقد أن الروح أو المتوفى نفسه يُمكنه أن يتشكل بأشكال مُختلفة.

أما العقيدة الإغريقية فهي كالهندية تقول بأن هذا التقمص سواء أكان في حيوان طيب أم خبيث لا بُد منه للروح بعد الموت، إذ هو بمثابة تطهير تُكفّر به عن الذنوب التي افترقتها في الحياة الدنيا.

تضارب الآراء في مقر الموتى

ومع ما يحيط بكل ذلك من الآراء المهوشة فإننا نجد بينها رأيًا واحدًا ثابتًا وهو العقيدة بأن المتوفى وروحه كانا يسكنان على الأرض. بيد أن هناك رأيًا آخر يرجع إلى عهد الفطرة يقول أنهما يسكنان السماء، ولا غرابة فإن الإنسان بما عنده من قوة الخيال كان يتخيل أرواح الموتى في الأجرام السماوية التي يخطئها العد والساطعة بأنوارها في القبة الزرقاء العجيبة. أما فرعون فإنه كان يمتاز باتخاذ مقعده بعد الموت في سفينة الشمس، ويسبح بين نجوم السماء ويعيش عيشًا رغدًا كإله الأُفق (الشمس) نفسه. وعلى مر الأيام أصبحت هذه الميزة شائعة، فصار في استطاعة كل إنسان بعد الموت أن يرافق إله الشمس خلال سياحاته في القبة الزرقاء.

كيف يعمد

وهناك رأى آخر مُباين جدًا لما سبق: وهو أن المتوفى

المتوفى إلى السماء

كان يقبل في السماء مع طائفة الآلهة ويعيش عيشة سعيدة بينهم. غير أن دون الوصول إلى ذلك عقبات جمة، أولها صعوبة المطلع الذي كان يرقى به الميت إلى السماء، فكانوا يتخيلون الميت في هيئة طائر أو جندب سابح في الأثير إلى السموات العُلى. وأحيانًا كانوا يتصورونه صاعدًا درج سلم ضخم نصب في الغرب كأنه عمود موصل بين السموات والأرض تحرسه الآلهة والإلهات ليل نهار. غير أنه لم يكن في استطاعة أي فرد أن يضع قدمه على هذا السلم ما لم يعلم التعويذة السحرية الخاصة به. فلا يُمكن الميت البدء في الصعود قبل تلاوتها. ومع ذلك فإن السلم نفسه لم يكن ليسلم من الأخطار، إذ قد تزلّ قدم الميت فيهوى إلى الحضيض، اللهم إلاّ إذا أخذت بيده إله رحيمة تساعده وقت الخطر وترفعه إلى أعلى. وهذه كانت كذلك تُدعى بألفاظ سحرية. وعندما يصل المتوفى إلى نهاية السلم تفتح له أبواب السماء العظيمة ويدخل في العالم العلوي. وهذا لا يختلف عن العالم الدنيوي الذي فارقه، فإنه يرى مُنبسطًا أمامه واديًا مُستطيلًا يخترقه نهر عريض يتفرع منه عدة ترع وبحيرات. وبيد أنه كان لا يزال أمام المُتوفى سفر طويل حتى يصل إلى مقره الأزلي. فكان مُحتمًا عليه أن يمر بجملة بحيرات ليتطهر بمائها ويجتاز عدة

ترع وفروع من النهر. ولما كان المتوفى لا يملك زورقًا يجتاز به تلك الترع والنهيرات، كان يضطر بطبيعة الحال أن يُنادي عند كل مجاز نولي الجهة بواسطة تعويذة تشتمل اسمه السري.

مكانة الموتى

وللموتى مقران رئيسيان في السماء، وهما «حقل القربان» و«حقل البردي». وكانوا يقطنون في هذين المكانين بصفة ملائكة النور، ويعدّهم الناس مخلوقات أرفع منهم درجة أي كأنصاف آلهة. أما فرعون المتوفى فكان لا يزال ذا مكانة عظيمة في عالم الموتى. فإنه بعد مماته يصير ملكًا مرة أخرى تحني الآلهة أنفسها الرءوس أمامه إجلالًا واحترامًا. وكان يجلس على عرش الملك ويتسلم الصولجان والسيف رمزًا لما لهُ من الجلالة والشرف.

أشغالهم في الآخرة

يشتغل المتوفى في حقل البردي بفلاحة الأرض التي هي أحب الحرف في مصر. على أن هذا الفلاح المنعم (المتوفى) يجني من عمله هذا ثمرة عظيمة تختلف اختلافًا كبيرًا عما كان يجنيه في الحياة الدنيا. فالقمح ينمو إلى ارتفاع سبعة أذرع ونصف، والسنبلة وحدها تربو على ثلاثة أذرع ونصف. فكان الموتى يعدّون الأرض ويبذرون البذر ويضمون الحصاد ويخزنونه، ثم يلهون بلعب النرد في نهاية اليوم بعد الفراغ من العمل تحت ظلال شجر

الجميز.

العالم السفلى

وكان المصريون أيضًا يعتقدون بوجود عالم سفلي تسكنه الموتى، وهي عقيدة ثالثة تتضارب مع العقيدتين السالفتين القائلتين بوجود مأوى الموتى في الأرض والسماء. وذلك أنهم اعتقدوا أن تحت العالم المستوي عالمًا آخر يُسمى «دوات»، هو كمصر، يخترقهُ نهر وعلى كلتا حافتيه ممرات طويلة وكهوف عميقة يتخذها الموتى مساكن لهم. فترى في خلال النهار قاحلة قفراء يخيم عليها الحُزن والكآبة، حتى إذا ما حلَّ الظلام ونزلت الشمس في الغرب خلف تلك الجبال الخرافية (منو) سطع نورها على الموتى. وعندئذ يُشاهدون بهاء نور رع وجلاله. ويسبّح الموتى الذين في حجراتهم وكهوفهم بحمد الشمس، وعندما يشاهدونها تفتح عيونهم وتمتلئ قلوبهم غبطة وسرورًا. وكذلك يصيحون فرحًا عندما يرون جرم الشمس في أُفقهم.

سياحة الشمس في العالم السفلي

وقد وُصفت سياحة الشمس الليلية في العالم السُفلي وصفًا بديعًا مسهبًا في الأعصر المُتأخرة؟، وأُضيف إليه كل الزيادات التي كانت تمتاز بها مُعتقدات البيئات المُختلفة في مأوى الأموات الأزلي: وذلك أنهم كانوا يعتقدون أنه يجري في وسط العالم السُفلي نيل سفلي، يسبح فيه إله الشمس ذو رأس الكبش يحيط به حاشية

كبيرة من الآلهة، ويقطن على ضفتي هذا النهر الجن والشياطين وكل أنواع المخلوقات الشنيعة التي كانت تحيّي إله الشمس وتدرأ عنه أعداءه.

أقاليم العالم السفلي وحراستها

وكان العالم السفلي مُقسمًا على مدى طوله إلى اثنى عشر اقليمًا، وهذه الأقسام مُقابلة لساعات الليل الاثنتي عشرة. ويفصل الأقاليم الواحد من الآخر بوابة ضخمة تحرسها ثعابين غلاظ. وعلى مقربة من كل مدخل ثعبانان ينفثان نارًا حامية وإلهان لحماية البوابة. وكان لا بُد لإله الشمس من معرفة أسماء هذه الثعابين والشياطين المُختلفة، إذ كانت لا تُغادر تلك البوابات حتى يفوه بأسمائها، وإذ ذاك تفتح البوابات ويمر زورق الشمس إلى إقليم جديد.

وكانوا يعتقدون أن عامة البشر يسكنون في العالم السفلي على هيئة أشباح، يحيّون إله الشمس، ويجرّون زورقه أحيانًا في ماء النهر الضحضاح كما يحدث ذلك عند انخفاض نيل مصر. أما فرعون المُتوفى فكان يتخذ مقعده مع إله الشمس في زورقه، بل الواقع أنه كان يصبح مثله، وإذ ذاك يسمح له بالاشتراك معه في سياحته الليلية العجيبة، على شرط أن يكون على علم بأسماء الشياطين والثعابين السرية.

سياحة الملك

ولأجل أن يُزوَّد بهذه المعلومات جرت العادة في عهد

ثم الرعية مع إله الشمس

الدولة الحديثة أن ينقش على جدران المقبرة بيان مُوضح بالصورة شامل لكل ما في العالم السُفلي. وقد قصر ذلك في بادئ الأمر على الملك، ثم قلده دهماء القوم فيما بعد، حتى سرى الاعتقاد أن كل ميت يُمكنه أن يُرافق إله الشمس في سياحته الليلية أو يقوم بها نفسه كأنه إله الشمس، بشرط أن يكون مُسلحًا بالتعاويذ السحرية الخاصة بذلك، وأن يكون معه في قبره وصف دقيق للعالم السُفلي.

الشجار بين ست وحوريس وما نتج عنه

على أن تلك الأفكار التي جمعت بين السهولة والتعقيد والبساطة والتنميق ما لبثت أن تأثرت وزاد ما فيها من الارتباك من جراء انتشار العقيدة الخاصة بالإله أزريس. ولا إِخال القارئ إلا ذاكرًا أن الآله أزريس قُتِلَ بيد أخيه ست الشقي، ثم قام ابنه حوريس يثأر له، فهزم الإله ست، وأفلح في إرجاع أبيه إلى الحياة ثانية. وقد حدث أثناء العراك الذي نشب بين هذين الإلهين أن اقتلع ست عين حوريس فقدمها هذا لأبيه، فكانت هذه الهدية العظيمة أكبر عامل في أحياء أزريس. على أن حوريس اضطر إلى استعمال عدد من التعاويذ والطقوس ليتسنى له أحياء والده تمامًا. وفي نهاية الأمر عاد أُوزريس إلى الحياة، وأصبح مالكًا لكل قواه الجُثمانية، وفي قدرته أن يتكلم ويأكل ويشرب. وقد تربع على عرش الملك

ثانية، غير أن سلطانه لم يقتصر هذه المرة على العالم الدنيوي، بل امتد نفوذه على «أهل الغرب»، أي أنه أصبح ملكًا على أهل النعيم من الأموات.

وهاك أنشودة عتيقة لأزريس في هذا الصدد:

أنشودة أزريس

يا أزريس، ها هو حوريس قد أتى، وهو يضمك بين ذراعيه، وقد جعل تحوت (إله القمر) يطرد رفاق ست ويأتي بهم أسري أمامك. وهو الذي جعل قلب ست يرتعد أمامك فرقًا، لأنك أعظم منه... إن إله الأرض «جب» يشاهد جلالك، ويحلّلك في مكانك، ويحضر أختيك أزيس. ونفتيس إلى جانبك (إذ هو والد أزريس أيضًا). أما حوريس فيجعل الآلهة ينضمون إليك، ويُرفقونك، ولا يبتعدون عنك؛ وكذلك يجعل الآلهة يطلقون سراحك. ويضع جب قدمه فوق رأس عدوك الذي يرتعد خوفًا منك. ويضرب ابنك حوريس «ست» ويأخذ منه ثانية عينه (التي كان قد اقتلعها ست) ويُقدمها إليك حتى تكون قَويَّ البطش بها أمام الملائكة (أي الموتى) ويجعلك حوريس تهزم أعدائك.... ويهزم حوريس ست ويرمي به تحتك فيحملك وهو يزلزل فرقًا كما تزلزل الأرض.

فرعوت وخيليفته

والواقع أن تاريخ أزريس الخرافي كان يُعاد باستمرار على الأرض مع كل فرعون من الفراعنة: وذلك أن فرعون

كازرنس وحوريس

كان يعتبر نفسه قد حكم الناس وأسعد رعاياه، ثم وافاه الموت كما وافى أزريس على يد أخيه ست. وكان يرى في ابنه وخليفته على الأرض مُنتقمًا له، من واجبه كحوريس أن يعيد والده إلى الحياة ثانية. ويسهل عليه القيام بذلك إذا استعمل التعاويذ والطقوس الدينية القديمة التي استعملها حوريس؛ وبذلك يفوز فرعون المتوفى على كل أعدائه ويصير هو نفسه أزريس وترفعه الآلهة على عرش الملك في عالم الموتى.

مقر أزريس

أما مقر ملك أزريس في الآخرة فلم يعرفه قدماء المصريين أنفسهم بالتحقيق؛ فقد ظنوا أولًا أنه في جهة مُعينة لم يُعرف موضعها باليقين، ثم تصوروا أخيرًا أنه في الغرب على وجه عام، كما اعتقدوا أيضًا أنه في السماء حقول أهل النعيم، أو في «دوات» وهي العالم السُفلي تحت الأرض.

البعث كازريس

وكانت قصة أزريس رائجة جدًا بين الناس مُنذ العصور السحيقة. وأخذوا يعتقدون بأن البعث ثانية كأزريس غير مقصور على فرعون وحده، بل هو مصير جميع البشر؛ ولذلك أصبحت الطقوس الدينية التي كانت تُقام للإله وخليفته في الأرض (فرعون)، إرثًا مشاعًا لكل مُتوفى؛ وصار في الإمكان جعل كل إنسان أزريسًا بواسطة التعاويذ الخاصة، فينتقل بذلك إلى حياة أبدية سعيدة.

الأخلاق

بيد أننا نغمط قدماء المصريين حقهم ونحط من قدرهم

الفاضلة وضرورتها للمتوفى

الخلقي إذا تخيلنا أن مصير الإنسان بعد الموت كان في اعتقادهم موقوفًا على معرفة التعاويذ السحرية المُختلفة وتلاوتها. إذ الواقع أننا نجد حتى في أقدم المتون التي يرجع عهدها إلى العصور الأولى أنه كان يتطلب من المتوفى أمور أرقى من ذلك بكثير: فلا بُد أن يكون قد عاش على الأرض عيشة صلاح وعفة، وكذلك يجب إذا أراد أن ينعم مثل أزريس أن يوجد «صادقًا» بعد الموت. وفي ذلك أيضًا تقلَّد الحوادث التي جرت للآلهة كما وردت في أساطيرهم.

محكمة أزريس

من ذلك أن الشجار الذي قام في عين شمس بين أزريس وست فُصل فيه بواسطة محكمة، وقد خرج منها أزريس مُنتصرًا وأعلن على رؤوس الأشهاد أنه صادق. فأصبح لزامًا على كل إنسان أن يُقدم نفسه إلى محكمة مُقدسة قبل أن يدخل العالم الغربي. وكانت هذه المحكمة تعقد جلساتها في «قاعة العدل» ويرأسها أزريس نفسه، وبجانبه اثنان وأربعون شيطانًا رجيمًا ينبعث من وجوههم عوامل الخوف والفزع: إذ كانوا يُمثّلون بجسم إنسان رأسه رأس صقر أو عقاب أو سبع أو كبش أو حيوان آخر وفي يد كل منهم سكين.

الحساب

وكذلك كانت أسماؤهم مُخيفة فمنها «ملتهم الدم» و«عين اللهيب» و«كاسر العظام» و«ساق النار»

و«لاوي الرأس» و«آكل الظل» إلخ.

وكان من المُحتم على المتوفى أن ينفي نفيًا قاطعًا أمام كل من هؤلاء القُضاة أنه ارتكب أي جريمة، فيقول: «أنا لم أفعل ما تمقته الآلهة، أنا لم أترك أحدًا يُقاسي مرارة الجوع، أنا لم أحضّ على القتل، أنا لم أسرق القرابين التي قُدمَت للآلهة، أنا لم أقتل». فإذا كان في قدرة المتوفي أن ينفي عن نفسه هذه الخطايا وهو مرتاح الضمير، يقوده الإله أنبيس عندئذ إلى القاعة التي يجلس فيها أزريس. ثم يوضع قلبه في كفة ميزان عظيم وفي الكفة الأُخرى تُوضع علامة العدل، ويُسجل الإله تحوت براءته من الخطايا. غير أنه كان يجلس بجانب الميزان فرس بحر هائل مُستعد لالتهام القلب إذا خف وزنه. فإذا اجتاز المتوفي هذا الحساب بسلام قدّمه حوريس إلى أزريس كما يُقدم أحد عمال القصر الملكي فردًا من الرعايا إلى حضرة الملك، فيسمح له أزريس أن يدخل في عالم النعيم ويصير من اتباع الإله الأعظم.

متون الأهرام وكتاب الموتى

وقد جمعت كل الحكم الخاصة بالحياة بعد الموت من أول عصور التاريخ المصري؛ وأقدم هذه المجموعات هي «متون الأهرام» التي يرجع تاريخ بعض فصولها إلى ما قبل انبثاق فجر التاريخ. وقد أطلق عليها هذا الاسم لأننا وقفنا على أقدم صورة لها من أهرام ملوك نهاية

الأُسرة الخامسة وملوك الأُسرة السادسة. وفي عهد الدولة الوُسطى ظهرت مجموعة أُخرى تُسمى «كتاب الموتى»، وكانت كثيرة الانتشار جدًا.

وصف سياحة الشمس

وقد وقفنا على وصف سياحة الشمس أثناء ساعات الليل الاثنتي عشرة من «كتاب ما في العالم السُفلي» ومن «كتاب البوابات» ومن كتابات أُخرى، وما ذلك كله إلاّ جزء ضئيل من الآداب الواسعة الخاصة بالموتى عند المصريين. وليس من مقاصد هذا الكتاب الكلام على جميع الكتابات التي من هذا النوع أو شرح النظريات التي تشتمل عليها، إذ أن هذا يبعدنا عن الغرض المقصود. أضف إلى ذلك أنني إذا أرخيت العنان لنفسي في هذا الموضوع أخشى أنه عما قليل يستولى عليكم الملل والسآمة.

المصري يحب الحياة الدنيا

ولا جدال أننا نرى في كل مكان آثارًا تُنبئ عن الجهود التي كان يبذلها المصريون لضمان الحياة بعد الموت، وتهيئة كل الأسباب لحياة الروح، غير أنه لا ينتج من ذلك ما ذاع من أن المصريين كانوا يحتقرون الحياة الدنيا، وأنه لم يكن لهم هم مدة حياتهم إلا الاستعداد للآخرة، إذ الواقع على عكس ذلك، فإنه قل أن نمر على شيء في شعور القوم وأفكارهم يغلب فيه الميل إلى الموت، ولذلك يكون من الشواذ إذا عثرنا على مثال كالاتي حيث

نجد فردًا راغبًا عن الحياة ومرحبًا بالموت كأنه صديق:

«يقف الموت اليوم أمامي كما يبرأ المريض من سقامه، أو كما يخرج الإنسان ساعيًا على قدميه بعد مرض أقعده، يقف الموت اليوم أمامي كالرائحة الزكية، أو كما يجلس الإِنسان في يوم رق نسيمه تحت قلاع المركب.

مثال فردي لكراهة الحب

يقف الموت اليوم أمامي كأنه مجرى من الماء أو كما يعود الإنسان إلى وطنه من سفينة حربية.

يقف الموت أمامي اليوم كرجل اشتاق إلى رؤية بيته بعد أن غاب عنه سنين عدة في الأسر.

ثم ترى هذا الرجل بعينه يُهنئ من تخلص من الحياة الدنيا وبلغ السعادة بالموت إذ يقول:

«إن من مات سيصير في دار الآخرة إلهًا حيًا يُعاقب من ارتكب ذنوبًا، إن من مات سيقف في قارب الشمس ويأخذ أحسن ما لذ وطاب في المعابد».

غير أننا نُؤكد مرة أُخرى أن هذه الأمثلة المُنبعثة عن عواطف لاكتئاب ليست سوى أمثلة فردية لا يُعتد بها، فإن عامة الناس في مصر كما في غيرها من البلدان «يحزنون عندما يُفكرون في الدفن، وهو عندهم أمر تُذرِف من أجله العين الدموع ويكتئب له القلب».

وكذلك كان يحزنهم أن «الموت ينتزع الفرد من بيته

ويرمي به على الروابي. فلن يعود ثانية ليشاهد الشمس». وإنه مهما شيد الإنسان قبرًا ثمينًا من الجرانيت والحجر الجيري وجهزه بكل ما يلزمه، فإن ما على مائدة قربانه سيكون أقل ثلاث مرات مما على مائدة من كان بلا مأوى، أو من أنهكهم الضنى فماتوا في الطريق ولم يتركوا خلفًا وراءهم.

الحض على التمتع بالحياة

لذلك لم يكن أمام الإنسان إلاّ شيء واحد يفعله: «يتمتع بالحياة ويقتفي سُبل السرور ويتناسى الهموم»، إذ لا حزن ولا ضحايا ولا طقوس يُمكنها أن تعيد إلى الميت ثانية متاع الحياة الدنيا.

وأنا نجد هذا المغزى في أُنشودة أُخرى قديمة مشهورة جدًا كانت تُنشد في الأعياد المأتمية:

«إن الآلهة (أي الملوك) الذين عاشوا في الأعصر الخالية يضطجعون الآن في أهرامهم. وكذلك الأشراف والحكماء مدفونون في أهرامهم، وكذلك الأشراف والحكماء مدفونون في أهرامهم

أما الذين شادوا لأنفسهم بيوتًا فقد أصبحت كأن لم تكن واخالك ترى ما أصابها... ولم يأت أحد من قبلهم ليخبرنا ماذا حدث في أمرهم، أو يذكر لنا كيف حالهم حتى تطمئن قلوبنا. لذلك يجب عليك أن لا تنسى أن

تكرم نفسك، وتمتع فؤادك وتتبع هواه ما دمت حيًا، إلى أن تذهب إلى المكان الذي ذهبوا إليه. فعطر رأسك، وارتد أحسن الملابس، ودلك جسمك بأعجب الروائح الإلهية.

جمع نفسك وأبرز في أحسن وأبهى منظر يُمكنك أن تظهر فيه، ولا تجعل للكآبة سبيلًا إلى قلبك.

اتبع ما يُمليه عليك قلبك وسرور نفسك ما دمت على قيد الحياة، لا تُكدر قلبك إلى أن يُوافيك يوم الحزن.

ولا مشاحة أن من وقفت حركة قلبه لا يسمع حزنك، وكذلك من يرقد في مخدعه الأزلي لا يدرك عويلك.

لذلك اجعل لك يوم سرور وكن فيه طلق المحيا، فإن الإنسان لا يأخذ متاعه معه في الآخرة، بل أن من مات لا يعود إلى هذه الدار ثانية».

فترى أيها القارئ أن حب الحياة الدنيا، رغم كل ما كان يبذل من ضروب السحر وأفانين التنجيم والتخيلات في سبيل الحياة بعد الموت، لم تنطفئ جذوته حتى عند المصريين؛ فإنهم مع مبالغتهم في الاعتناء لإتقان عدتهم للحياة الآخرة لم ينسوا ذلك الشعور السليم القائل بأن «الحياة أحسن شيء بين الأشياء الحسنة».

المحاضرة الخامسة

القبور والدفن

الديانة المصرية خارج مصر

أثر المُعتقدات في العادات المأتمية

تكلمت بإيجاز في محاضرتي الأخيرة عن مُعتقدات المصريين في أشياء الآخرة، وعن آرائهم في الحياة بعد الموت. ويجدر بنا الآن أن نُلاحظ كيف أن هذه المُعتقدات كان لها أثر فعال جدًا في كل عادات القوم المأتمية. فإن من نتائجها تلك القبور المسكينة الأركان الضخمة البنيان التي لا تزل موضع إعجاب العالم إلى يومنا هذا؛ وكذلك العناية بتحنيط الأجسام، والعطايا الوفيرة التي كانت تُوضع مع المُتوفى في مضجعه الأبدي. وسيكون بحثنا هنا في دائرة عادات كانت بطبيعة الحال عرضة لتغيير عظيم في انتقالها من قرن إلى قرن ومن إقليم إلى إقليم. فلم تكن العادات المأتمية في الدولة القديمة كما كانت في أيام الإسكندر الأكبر. ولم تكن يحتفل بها في الدلتا بالطريقة التي كان يُحتفل بها في إقليم الشلال «سيبني» الواقعة في جنوب مصر الأقصى.

وغرضي الآن أن ألفت نظركم إلى بعض نقط في هذا

الموضوع الذي يُعتبر أعظم فروع العلوم المصرية إمتاعًا، حتى يتسنى لي شرح الطريقة العملية التي بها أبرز المصريون مُعتقداتهم عن الآخرة.

العناية باختيار المدفن وموقعه

كان أول غرض يرمي إليه المصريون أن يُحافظوا على الجثة في مضجعها الأخير، وذلك بإعداد مخدع حقيقي للمتوفى. وكان ماء الفيضان أكثر ما يخافونه، ويعتبرونه أكبر عدو للقبور بعد اللصوص والنشالين الذين كانوا يتخذون المقابر والجبانات مسرحًا للنهب والسلب. لذلك كان من أهم الأُمور لديهم أن يتحاشوا دفن الميت في بقعة رطبة، فيختاروا للمقبرة المرتفعات والآكام في أراضي الصحراء الرملية أو الصخرية. وكثيرًا ما يُقال أن قُدماء المصريين لم يدفنوا موتاهم على الشاطئ الغربي للنيل إلاّ لأنه الإقليم الذي تغرب فيه الشمس. وفي اعتقادي أن هذا رأي غير صحيح. حقًا كانت الجبانات العظيمة في مدن منف والعرابة المدفونة وطيبة وسيبني (أسوان) تقع في جهة «امنتت» أو أقليم الغرب. غير أنها في مُدن أُخرى كتل العمارنة وأخميم تقع على الشاطئ الشرقي، شرقي مدينة الأحياء. ومن ذلك يتضح جليًا أن أحوال البيئة كان لها الدخل الأكبر في انتخاب المضجع الأزلي للمتوفى حتى يكون أوفق مكان وأبعده عن الخطر، وإذا رأينا في المتون المصرية أن كلمة

«الغرب» مرادفة لكلمة جبانة، وأن الموتى يُعبر عنهم «بأهل الغرب»، فمن المُحقق أن هذه التعابير اخترعت أولًا في مدينة ما، ويحتمل أن تكون العرابة المدفونة، التي اتفق قديمًا أن جماعة الأموات كانوا مدفونين في هذه الجهة الخاصة منها.

أقدم ما عُرف من القبور

وأقدم ما عُرِفَ لدنيا من القبور حفر مستطيلة ساذجة، كانت تُوضع الجثة في الحفرة ويهال عليها الرمل، ثم يجمع فوق ذلك كومة صغيرة من الرمل والأحجار كما تفعل الأعراب إلى يومنا هذا. ولا يغرب عن الذهن أن الملك كان لا يكتفي بقبر ساذج مثل هذا. فكما أنه كان يُرى في حياته مشرفًا على رعاياه كالمارد بين الأقزام، كذلك كان من المُنتظر أن يكون قبره أضخم حجمًا وأعلى بُنيانًا من قبور رعاياه. لذلك كان يبتدئ وهو على قيد الحياة في إعداد قبر لهُ رفيع البُنيان رائع المنظر*.

قبر الملك ومشتلاته

وكان قبر الملك في أول الأمر بناء ضخمًا من اللبن مُستطيل الشكل يشتمل داخله على عدة حجرات لا يُمكن الوصول إليها من الخارج، تُدفن جثة الملك في إحداها ويُخصص الباقي للقرابين التي تُدفن معه. وكان

* يقع قبر مينا أول ملك مصري معروف في التاريخ بالقرب من بلدة تقاده الحالية وهي قريبة من العرابة المدفونة (**Zectschrifs**) عدد ٣٦ سنة ١٨٩٨.

يحلي ظاهر جدران القبر يحفر أبواب كاذبة عليها، اعتقد القوم أنهُ بواسطتها يستطيع الملك المتوفى ترك قبره عندما يريد ثم يرجع إليه ثانية. وعلاوة على ذلك كانت هذه الأبواب الوهمية تُستعمل كموصل للقرابين التي تُقدم للمتوفى، والتي يضمها فناء مسور أمام الباب الوهمي.

ما يُدفن مع الملك

وكان قبر الملك يشتمل فضلًا عن ذلك على لحود صغيرة عدة لنسائه وأقزامه بل وكلابه، وكانت هذه تُدفن في اللحظة التي يُدفن فيها فرعون.

ولا مُبالغة إذا قررنا أنها كانت ندماءه وخلانه في حياته، وأنها كانت تذبح وقيت جنازته حتى لا يفرق الموت بينها وبينهُ، وبذلك يستطيع أن يستمر في التمتع بها في حياته الآخرة. ولما ارتقت عواطف الإنسان وتهذبت طباعه على مرّ الأيام حذفت هذه القرابين البشرية من الطقوس المأتمية، واكتفى بوضع تماثيل أخدان الملك وجلسائه أو صورهم في قبره بدلًا من أشخاصهم.

الهرم وأصله

وعلى مر الأيام ارتقت هذه القبور الساذجة المُشيدة من اللبن تدريجًا حتى أخذت شكلًا هرميًا. وقد بقى هذا الشكل خصيصًا بالمدافن الفرعونية نحو ألف عام، ولا يزال إلى يومنا هذا رمزًا ودليلًا على وادي النيل. ومهما كان من شأن الهرم، حتى هرم خوفو الذي يبلغ علوه ٤٨٠ قدمًا ويُقارب ارتفاعه أعلى ما صنعهُ الإنسان،

فإنهُ لا يخرج عن كونه كومة مأتمية أُقيمت فوق قبر الملك تغالى الإنسان في تضخيمها والتأنق في وضعها. وقد جرت العادة أن يشتمل القبر على حجرة واحدة أو أكثر تحت الأرض، إلاّ أنها كانت أحيانًا تُبنى في جوف الهرم نفسه ويتوصل إليها بممر ضيق، يعتني بسده بعد الدفن. أما حجرات الهرم الداخلية التي كانت تُخصص واحدة منها لتابوت الميت، فكانت في الأصل عارية من كل زينة. وقد بقيت كذلك حتى أواخر الأُسرة الخامسة أي حوالي عام ٢٥٤٠ ق.م.

متون الأهرام

ومن وقتئذٍ ابتدأت الفراعنة تنقش على جدرانها متونًا دينية خاصة بالحياة بعد الموت. وهذه النقوش هي المعروفة بمتون الأهرام، وقد تكلمت عنها في محاضرتي السابقة. وتُعتبر أهم مصادر لمعلوماتنا عن الديانة المصرية في نشأتها الأولى. وكان ينقص الأهرام المكان الذي تقدم فيه القرابين للروح، مع أنهُ كان ضمن محتويات أقدم القبور الملكية.

معبد الهرم

وقد سد فرعون هذا النقص بتشييد معبد خاص لروحه في الجهة الشرقية من الهرم. وكان هذا المعبد يُزين كمعابد الآلهة بالكتابات والنقوش البارزة. والظاهر أن تماثيل الملك كانت تُوضع في حجر خاصة بها في هذا المعبد.

المسطبة

ولما رأى عُظماء الدولة الملوك يُشيدون الأهرام العظيمة، لم يكتفوا بالمقابر الساذجة التي كانوا يُشيدونها لأنفسهم، وأخذوا يقيمون لجثثهم مقابر أمتن منها بُنيانًا. وكان نموذجهم أيضًا القبر الساذج المُحاط بكومة: وذلك أنهم كانوا ينحتون في أصل الصخر حجرة تحت الأرض، يوضع فيها التابوت، ويتوصل إليها ببئر عمودي يبلغ عُمقه أحيانًا نحو ٥٠ قدمًا، ثم يُقام فوق هذه الحجرة بناء مستطيل أملس من الحجارة أو اللبن. ويطلق المصريون الحاليون على كل المقابر التي من هذا النوع لفظة مسطبة، لتشابهها بالمسطبة التي تُبنى أمام المنازل في الأرياف. وفي الجانب الشرقي من المسطبة يُشاهد الباب الوهمي الذي اعتقد القوم أن الميت يخرج ويدخل منهُ. وأمام هذا الباب كانت تُقدم القرابين على مائدة مُنخفضة من الحجر الجيري، وكذلك كانت تُتلى الصلوات ترحمًا على المتوفي. وكثيرًا ما حول هذا الباب الوهمي إلى حجرة صغيرة يُوضع الباب الوهمي في جدارها الخلفي. أما في العصور المُتأخرة فكانوا يُشيدون سلسلة حجرات من هذا النوع في داخل المسطبة.

نقوش القبر وأهميتها

وكانت جدران هذه الحجرات تُغطى بالصور والنقوش كلما وجد إلى ذلك سبيل. والقاعدة أن هذه النقوش تتعلق بالقبر، أما القرابين فخاصة بالمتوفي. إلاّ أن النقوش

كانت تشتمل أحيانًا على صور كل الأشياء التي كان يعزُّها المتوفى على الأرض، وعلى كل الأعمال التي كان يميل إليها ميلًا خاصًا وهو على قيد الحياة. ولا مشاحة أن المصري كان يُخيل إليه أن كل هذه الأشياء المرسومة تبقى بقوة السحر، وأن في مقدور المُتوفى أن يتمتع تمتعًا فعليًا بكل ما هو مُمثل بالرسم على جدران حجرته. فهنا نرى كيف يجلس المتوفى على المائدة صحبة أفراد أُسرته غالبًا وأمامه الطعام والشراب بوفرة، وليس عليهِ إلاّ أن يبسط ذراعهُ ويأخذ ما تشتهي نفسه. وكذلك يُرى منقوشًا على الجدار كشوف مطولة تشتمل على كل ضروريات الحياة كالخبز والكمك والنبيذ والجعة واللحم والخضر والفاكهة وكل ما كانت تتطلبه نفس أي مصري قديم.

وفي مناظر أُخرى نرى الرجال والنسوة من الفلاحين يحملون كل أنواع الطعام إلى قبر المتوفي. أو نرى المتوفي نفسه يرقب الصيد في الصحراء أو يفحص قطعان الماشية التي كان لزامًا على بعض القرى أن تُقدمها قربانًا للموتى. وفي صور عدة نرى الضحايا ذاتها: فنرى كيف تذبح الماشية ويسلخ جلدها وكيف يقطع القصاب الحيوان إربًا وهو يكبر ويهلل بألفاظ منقوشة على الجدار، وكيف يحمل الخدم أفخاذ الحيوان وأطيب

أجزائها إلى القبر. وبذلك يتمثل أمامنا صفحة من حياة المصري بشكل حي واضح، حتى أنه بعد مرور تلك الآلاف من السنين يتسنى للفرد الذي يُمكنه مشاركة القوم في عواطفهم ومزج روحه بروحهم أن يشعر بأعظم لذة وسرور من هذه المناظر.

السرداب

وفضلًا عن هذه الحجر التي كان يسمح لأقارب المتوفى بدخولها، كانت المساطب الضخمة البنيان تشتمل على حجرة لا يُمكن الوصول إليها، وهي ما يُطلق عليه الآن اسم «سرداب». وكان ينصب فيها تمثال المتوفي وبرفقته زوجته وأولاده غالبًا، وتعتبر الحجرة الخاصة للمتوفى في بيته الأزلي. وكان يفصل السرداب عن الحجرة جدار، وكثيرًا ما كان يُوصل بين الاثنين فتحة صغيرة ليتسنى للمتُوفى أن يشترك في القرابين التي كانت تُقدم أمام الباب الوهمي، ويسمع الصلوات تُتلى، ويتنسم عبير البخور.

القبر الصخري

وفضلًا عن الأهرام والمساطب التي أخذ يقلدها جم غفير من السكان فيما بعد بطريقة سبق شرحها، ابتدع الفراعنة في أواخر الدولة القديمة حوالي ٢٢٠٠ ق.م شكلًا آخر من القبور يُدعى هيبوجيم أو «القبر الصخري». حقًا قد نحت قبل ذلك الوقت في عهد الدولة القديمة مقابر في جوانب الجبال، غير أنها الآن

أخذت شكلًا مُعينًا ينطبق عليه وعلى معابد الآلهة نموذج البيت العادي. فكانت المقبرة تشتمل أولًا على ساحة مكشوفة يتلوها ممر منحوت في أصل الجبل يرتكز سقفه على عمد. ثم يتلو ذلك قاعة كبيرة منحوتة كذلك في أصل الصخر، ومحمول سقفها على عمد أيضًا. ثم ينتهي القبر بحجرة صغيرة تشتمل على تمثال المتوفي. ولا شك أن من يذكر منكم تصميم المعبد المصري يرى في الحال أن لا فرق مُطلقًا في الشكل بين «بيت الإله» و «بيت المتوفي». أما التابوت الذي يحتوي على الجثة فكان يُوضع في حجرة تحت الأرض يصل الإنسان إليها ببئر من قاعة العمد.

تغيير في مقابر الملوك

وقد حدث تغيير عظيم في شكل مقابر الملوك في أوائل الدولة الحديثة حوالي عام ١٥٠٠ ق.م. فقد كانت العادة المُتبعة إلى ذلك العهد أن يبني فرعون لنفسه ضريحًا هرمي الشكل قائمًا بذاته في وسط الجبانة. أما الآن فقد أخذ فرعون يتخذ مثوى لمومیائه بنحت عدة حجرات في جهة الجبل يصل إليها الإنسان بممر طويل. وقد كان ارتفاع الصخرة نفسه يقوم مقام الكومة المأتمية (الهرم) التي كانت تُقام فوق مضجع فرعون الأزلي. ولم يعُد الملك يُدفن وسط قبور رعاياه، بل على مسافة في واد منفرد من وديان سلسلة جبال لوبيا يكتنفهُ صخور

قاحلة جرداء.

معابد القبور الصخرية

ولما كان هذا الوادي ضيقًا جدًّا صار من المُتعذر بناء معبد للمتوفى أمام قبره، ولذلك كان لزامًا فصل المعبد عن المقبرة، فأصبح فرعون يشيد المعبد في السهل المُجاور لهذا الوادي. وقد حفظت لنا الأيام على عصرنا هذا هذه المقابر الصخرية الملكية وما أُلحق بها من المعابد التي كانت أحيانًا آية في الفخامة والأُبهة، وهي قائمة على ضفة النيل الغربية على مقربة من طيبة حاضرة الدولة قديمًا.

محتويات المعابد الصغيرة

ولا يبعد أن المعابد التي شيدها الملوك تخليدًا لذكرهم كانت تضارع في معدَّاتها معابد الآلهة في ذلك الحين. أما حجر قربان عامة الناس فيغلب على الظن أنها لم تشتمل على مُعدَّات تُذكر، فكان غاية ما تحتوي عليه هذه المعابد الصغيرة (حجر القربان) من الأثاث مائدتي قربان يقدم عليهما طعام المتوفى، وبضعة أباريق وأوانٍ من الجرانيت تشتمل على الشراب المُقرّب.

محتويات الضريح

وأحيانًا تنصب بضع مسلات صغيرة حجرية أمام الباب الوهمي تشبهًا بالمسلات الضخمة التي كانت تُقام أمام بوابات المعابد الكبيرة. أما الضريح نفسه، أي الحجرة المنحوتة في جوف الأرض وهي التي يضطجع فيها المتوفى، فكان أوفر من ذلك عدة وأبقى رونقًا. إذ كان

يكتنف الجثة في مخدعها عدد وفير من التُحف، الغرض منها تخفيف مُصاف الميت وإعداد وسائل السعادة لهُ في الحياة المُقبلة.

وضع الجثة في القبر وعدتها

وكانت الجثة تُدفن في أقدم عصور التاريخ على هيئة القرفصاء، ويداها موضوعتان على مُقدمة الوجه. وكانت المادة المُتبعة أن توضع رأس المتوفي في الجهة الشمالية، بحيث يولي وجهه شطر المشرق حتى يرى الشمس المُشرقة. أما الجثة فكانت أحيانًا تلف في نسيج من الكتان، أو توضع في تابوت ساذج من الخشب جرت العادة أن يترك في القبر بدون غطاء قط. وأما القرابين التي تُوضع مع المتوفي فكان القصد منها تغذيته. وتشتمل على أباريق من الجعة وأوان أُخرى تحتوي الآن على رماد يحتمل أنهُ بقايا طعام محروق. وفضلًا عن ذلك كان القبر يشتمل على أوانٍ حجرية فيها كل أنواع الدهان، وعلى أطباق رقيقة غريبة الشكل كان يستعملها المتوفي لوضع ألوان تجميل الوجه في آخرته كما كان يفعل في حياته. كذلك كان المتوفي يسلح بكل أنواع الأسلحة ليدرأ بها عن نفسه غائلة الأعداء، ويُعد بالتعاويذ للوقاية من شر الشياطين الرجيمة.

طريقة الدفن في الدولة

وفي عهد الدولة القديمة، أي في عصر بُناة الأهرام، أخذت طريقة دفن الموتى شكلًا آخر جديدًا، فلم يعد

القديمة يُوضع الميت في قبره على شكل القرفصاء، بل أصبح يُوضع على جانبه كأنهُ نائم. وفضلًا عن ذلك صار رأسه يُوضع على وسادة. وكانت الجثة نفسه تُحَنْط بكل عناية، فتحول بعد إجراءات طبية عدة إلى مومياء، وبذلك لا يُخشى عليها من الانحلال والتلف.

أحشاء الميت وأواني كانوب وكانت أحشاء الميت تُنزع منهُ وتُدفن في أوان خاصة، يطلق عليها المؤرخون الآن أواني «كانوب» ويحرسها أربعة آلهة هم أولاد حوريس. وكان من واجب هذه الآلهة أيضًا حفظ الجسم نفسه ووقايته من الجوع والعطش. لذلك كان غطاء كل من هذه الأواني الأربعة يُمثل غالبًا واحدًا من هذه الآلهة وهي: رأس إنسان ورأس قرد ورأس ابن آوى ورأس صقر.

التحنيط أما الجثة نفسها فكانت تُوضع في ماء ملح وتُعالج بالقار، ثم تلف في أربطة من النسيج، ويحشى الجوف الخالي من الأحشاء بلفائف من الكتان والقش. على أن طُرق التحنيط كانت تختلف باختلاف العصور. روى هيردوت أنها كانت في أيامه لا تقل عن ثلاث طُرق تمتاز الواحدة عن الأُخرى على حسب الثمن الذي يُدفع فيها. وهاك وصف أغلى هذه الطُرق: تُوضع الجثة بين أيدي مُحنطين مهرة اختصوا بهذه الحرفة، فينتزعون أولًا النخاع المخي بواسطة خطاف من الحديد يرسل إلى المخ من المنخر،

وما تعذر انتزاعه من هذه المادة بهذه الكيفية يُستخرج بواسطة عقاقير كاوية. ثم تعمل فتحة في الجنب بآلة حادة من الظران، وتُنزع منها الأحشاء فتُنظف ويُصف عليها نبيذ البلح وتضمخ بكل أنواع البهار. أما البطن نفسها فكانت تفعم بالمر وغيره من المواد ذات الرائحة الزكية ثم تُخاط ثانية. ويُترك الجسم بعدئذٍ مُدة سبعين يومًا في محلول قوي من النترون. وبعد انقضاء هذه المدة تُغسل الجُثة مرة أُخرى وتُلف في أربطة من الكتان وتُدهن بالصّمغ. وبهذه الكيفية تُصبح مُحنطة تحنيطًا من الدرجة الأُولى. ويُخيل إلى القارئ أنك قد سمعت ما فيه الكفاية من طُرق التحنيط، ولذلك استمحيك عُذرًا في عدم وصف طريقتي التحنيط الأُخريين كما رواهما هيرودوت.

التابوت ونقوشه

وكانت المومياء تُوضع عادة في صندوق من الخشب أو الحجر الأملس السطح، محلى ظاهره غالبًا بعدة أبواب وهمية يُخرج منها الميت ويدخل ثانية كما يُشاهد ذلك في قبور الملوك في الأزمنة السحيقة جدًّا. كذلك كان يرسم في طرف التابوت الذي فيه رأس المُتوفى عينان أما موجهه حتى يستطيع أن يرى من تابوته ويُشاهد الشمس المُشرقة. وبمرور الزمن أصبحت جدران التابوت الداخلية تُنقش بمتون خاصة بالحياة بعد الموت (فصول من متون الأهرام وكتاب الموتى). هذا فضلًا عن تصوير كل ما

يُمكن أن يحتاج إليه الميت في آخرته. من ذلك تصوير أصناف الطعام والشراب بكمية وافرة، كذلك الحلي والأسلحة والملابس وآلات الزينة والأحذية وغيرها، ثم أصبحت التوابيت في العصور المُتأخرة تُصنع غالبًا على هيئة مومياء بوجه مكشوف وتحلي بأربطة كاذبة يُنقش فيما بينها كتابات وأشكال آلهة الغرض منها الحصول على سعادة المُتوفى وراحته.

محتويات قبر كاهن

ومُنذ الدولة القديمة ازدادت القرابين المأتمية ازديادًا مضطردًا، وأحسن مثال يدل على مقدار كثرة هذه القرابين الكنز الذي كشف في بداية القرن العشرين في قبر أحد الكهنة في مدافن منف، ويرجع تاريخه إلى عام ٢١٠٠ ق.م، ومحتوياته محفوظة الآن في متحف جامعة ليبيزك، وهي: نموذج مخزن غلال من الخشب يُحاكي المخزن الحقيقي في كل صغيرة وكبيرة، وضع مع المتوفى في قبره ليأخذ منه ما يستعين به على الحياة في الآخرة. وهو عبارة عن حوش مسور يصل إليه الإنسان من بوابة ويشتمل على حجر الغلال، وفي وسط هذا الحوش كانت تُكال الغلال، ثم يحملها الخدم في حقائب، ثم يفرغونها في حجرات المخزن بواسطة فتحات خاصة. وفي خلال ذلك يُسجل الكاتب وهو قاعد القرفصاء على كثب عدد الحقائب. وبهذه الطريقة كان المُتوفى يجهز

نفسه بالمواد الغُفْل التي تقوم بحاجته في الحياة الآخرة. وكذلك كان معه نموذج مطبخ لطهي طعامه، تُذبح فيه الحيوانات وتُطهى ويُخبز فيه العيش وتصنع الجعة. وكان تحت تصرفه أيضًا أربع سفن صغيرة، منها اثنتان تحركان بالمجاذيف واثنتان بالقلاع، ويديرها جميعًا نواتى مُصفرة، وكان الغرض منها أن يسيح فيها المُتوفى في المياه السماوية إلى حقول أهل النعيم. وكان لا بُد من استعمال النماذج أحيانًا بدل الأشياء الحقيقة وبخاصة الأدوات الغالية الثمن. فمن هذه النماذج آلات نحاسية صغيرة وقوس سهام خشبية وكذا وسادة ونعلان من الخشب. هذا إلى تمثالي رجل وامرأة من الخشب الملون تأخذ دقة صنعتهما بمجامع القلب، وهما يحملان أصناف الطعام إلى المُتوفى — منها أوزة — ويقومان بخدمته. وكذلك وجد في هذا القبر أسلحة وعصى وأطباق خزفية وأباريق مُفعمة بألوان المأكل وأنواع المشرب.

دواعي السرور والأُنس في القبر

غير أن حيطة المصري لم تنته عند ما وصفته لكم من الأشياء التي كانت تُحفظ مع المُتوفى. فقد كان يُوضع في قبره غالبًا نماذج لعجول البحر حتى يتسنى له صيدها في آخرته كما كان مُغرمًا بذلك في حياته. وكذلك كان يحمل معه آلات الطرب ولعب النرد ليتمتع بها، ومراوح منقوشة بنقوش بديعة ليروح بها عن نفسه في قبره، ثم

تماثيل نسوة ليؤنسنه كذلك. ومن الغريب أن هذه التماثيل صنعت من غير أقدام حتى لا تفر من القبر. وكان يُوضع أحيانًا مع المُتوفى رأس آخر يُحاكي رأسه مخافة أن يُنزع منه الشياطين رأسه الحقيقي في الآخرة.

الغرض من التماثيل الصغيرة في القبر

وقد أخذت التعاويذ والتماثيل المسحورة تلعب دورًا هامًا في تحقيق سعادة المُتوفي في الآخرة، وذلك أنه لما كانت أعمال الزراعة في حقول البردي غالبًا شاقة على المُتوفي، ظن القوم أنه يُمكن مُساعدته بوضع تماثيل صغيرة معه في القبر لِمُعاونته في الحقل، ولذلك كانت تحمل معها آلات الفلاحة اللازمة، وقد كُتِبَ عليها إما اسم المُتوفي وإما تعويذة سحرية بواسطتها يدب فيها الحياة في الوقت المناسب فتقوم بأعباء العمل المنوط بالمتوفي.

قلب الميت والجعل

يذكر القارئ أن قلب المتوفي على ما جاء في عقيدة مُتأخرة كان لا بُد أن يُوزن أمام الإله أزريس. ولما كان القلب الحقيقي ينزع من الجثة لما تقتضيه عملية التحنيط، استعيض منه قلب صناعي من الحجر على هيئة جُعَل يوضع تحت أربطة المومياء. وكان يجيب عن المتوفي في الحياة السُفلى بواسطة تعويذة سحرية وهي: «أيها القلب الذي أملكه من أمي، أيها القلب الذي يتعلق بوجودي لا تقف شاهدًا على (في قاعة الحكم أمام أزريس) لا تكن خصمي أمام القضاة، لا تناقضني أمام

القائم بأمر الميزان. أنت روحي التي في جسدي فلا تُدنس اسمنا... ولا تكذب علي أمام الإله».

التمائم والسر فيها

وكان لديهم تميمة أُخرى مصنوعة على هيئة عصا مُقدسة وتعبد كالوثن في مدينة بوصير (في الدلتا). والسر فيها أنها كانت تمنع المتوفي من أن يطرد من دخول بوابة الغرب. وقد نُقِشَ عليها: فليقدم له الخبز والجعة والكعك واللحم الوفير على مائدة أزريس، لأنه أصبح مُنتصرًا على أعدائه في الحياة الأُخرى انتصارًا مُبينًا.

وأخيرًا يجب أن نذكر تميمة على هيئة عقدة مصنوعة من اليشم الأحمر، وكانت كثيرة الاستعمال وتُعتبر رمز الإلهة أزريس، وقد اعتقدوا أن من طوق بها جيده رمقته أزيس بعين رعايتها، وكذلك انشرح صدر حوريس عند رؤيتها. وفي رواية أخرى أنه كان لها سر آخر يُماثل سر العصا المُقدسة التي تكلمنا عنها آنفا، أي بواسطتها يستطيع المتوفي أن يقفوا أثر أزريس في عالم الأموات، فتُفتح له أبواب الآخرة، ويُقدم له الشعير والشوفان في حقول البردي (في السماء)، ويصير كالآلهة الذين ينعمون هُنالك.

ولنكتف بالقدر الذي ذكرناه من التعاويذ التي كانت تُغطى بها المومياء في الأعصر الخالية، كأنها مكسوَّة بدرع

تدرأ به عن نفسها، وكان عددها يبلغ أحيانًا المائة.

وغني عن الذكر أن قومًا كالمصريين بذلوا مجهودًا عظيمًا في بناء مقابرهم وإعدادها، كانوا يحتفلون حتمًا في يوم الدفن وهو اليوم الذي كان يدخل فيه الراحل «مخدعه الأبدي» بطقوس ورسوم خاصة، وإن لم يكن لدينا مصورات من كل عصور التاريخ المصري نستطيع أن نرى بواسطتها تلك الاحتفالات المأتمية رأي العين.

وصف الاحتفال بدفن الميت

ففي المُدن التي لم تكن فيها الجبانة على الشاطئ الذي فيه المدينة كطيبة مثلًا، كانت تنقل المومياء إلى الشاطئ الغربي في زورق محلي بأحسن الزينة، يتقدمه كاهن يرتل الصلوات المفروضة وينشر عبير البخور. ويصحب المومياء أخدان المتوفي وأقرباؤه رجالًا ونساء يبكون وينتحبون بأصوات عالية. وعندما ترسو الزوارق التي تحمل المومياء والمشيعين على الشاطئ الغربي يُوضع التابوت على زحافة يجرها ثيران إلى مدينة الأموات. وحينما يصل محفل المشيعين المحتشد إلى باب القبر تُؤخذ المومياء مرة ثانية من التابوت، وتنصب واقفة أمام الضريح يسندها كاهن ذو وجه مُستعار يُمثل وجه أنوبيس إله الجبانة.

فتح الفم

وفي الحين الذي يُودع فيه الأهل والخلان المُتوفي الوداع الأخير، كان الكهنة يتلون صلواتهم ويعدون الراحل

لسفره الأخير. وفي هذه الآونة كان يعمل طقس خاص يُسمى فتح الفم. وذلك أن يفتح فم المُتوفي بواسطة خطاف وتلاوة تعاويذ سحرية، فتعود إليه خاصية استعمال فمه سواء أكان ذلك في الكلام أم الأكل أم الشرب. وبعد الفراغ من ذلك يحمل التابوت مُشتملًا على المومياء إلى فوهة القبر ويُدلى بأحبال إلى أعماق الرمس حيث يتلقاه الدافنون.

دفن الحيوان المُقدس

ولعمري إذا كان هذا مقدار المجهود الذي يبذل في دفن آدمي، فما أعظم ذلك المجهود إذا كان المتوفي «إلهًا حيًا»، أي إذا اخترمت المتون حيوانًا مُقدسًا.

والظاهر أن قدماء المصريين من أقدم المصريين من أقدم عصورهم خصصوا جبانات لدفن الحيوانات المُقدسة التي كانت تُحفظ في المعابد، مثل العجل أيبس والعجل منفيس وكبش منديس. فنعلم أن العجل أبيس مثلًا كان يُحنط كالإنسان بالضبط وتشيع جنازته باحتفال عظيم.

السريبوم

وكانت عجول أيبس تُدفن في مدافن خاصة في العصور الأُولى، فلما جاء رمسيس الثاني بنى لها مدفنًا عامًّا صار فيما بعد كعبة للزائرين. وهذه المقابر تُعرف بالسربيوم، وهي واقعة في الصحراء على كثب من سقارة. ولا تزال تلك المدافن التي تحت الأرض بما تشتمل عليه من التوابيت الحجرية الضخمة الهائلة موضع الإعجاب إلى

يومنا هذا.

جبانات الحيوان المُقدس

ولما أخذت عبادة الحيوان تزداد رسوخًا في البلاد، وذلك قبل الميلاد ببضعة قرون، وصار تقديس الحيوان لا يقتصر على أفراد معينة بل يشمل النوع كله، إذ كان يُعتبر المظهر الذي يتجلى فيه الإله الحقيقي، أصبح دفن حيواناته جميعها من الأعمال التي يستحق عليها فاعلها الثواب، وقد أقيمت مدافن عظيمة لهذا الغرض يشتمل الواحد منها أحيانًا على مئات الموميات، فكان في بوبسطة مثلًا جبانة عظيمة للقطط التي عبدت هناك، وفي منف مدافن عدة لمالك الحزين المقدس، وفي امبص (كوم أمبو) مدفن عظيم للتماسيح الكبيرة التي يختلف طولها من ٦ إلى ١٠ أقدام وبجانبها غيرها صغيرة جدًا، على أنهُ في أحوال خاصة كان بدفن الحيوان المقدس في قبر خاص به، ويوضع في تابوت وتنصب لوحة منقوشة على قبره، ومن الأثار الغريبة في بابها من هذا النوع اللوحة الموجودة الآن بمتحف برلين، وغرابتها تنحصر في أنا ناصبها أغريقي استوطن مصر، وقد أقيمت هذه اللوحة على جثة حية قتلها مجهول ونقش عليها بالإغريقية الركيكة العبارة الآتية:

أيها الغريب قف عند مفترق الطرق أمام الحجر العظيم وستجده مفعمًا بالكتابة.

محتويات لوحة قبر لحية

انعى بصوت مرتفع، أنا تلك الحية المقدسة الطويلة العمر التي قضت عليها يد شريرة جعلتها من أهل الآخرة.

ما الذي جنيت يا أشقى الناس باغتيال حياتي؟

سيكون نسلي مهلكًا لك ولذريتك، فإنك بقتلي لم تقتل مخلوقة تعيش على الأرض فريدة.

فإن نسل الذي ينتشر على وجه البسيطة كعدد حب الرمال على شاطئ اليم لا شك سيقذف بك إلى جهنم، ولكن ذلك يؤجل حتى ترى أولًا بعيني رأسك حتف ذريتك.

لقد أشرفنا على ختام هذا البحث، بعد أو وصفنا لكم على سبيل الإيجاز نهضة الديانة المصرية وتدهورها ومعتقدات المصريين في شئون العالم الآخر وعبادتهم للآلهة والموتى.

ويجمل بنا الآن قبل انتهاء كلامنا أن نعرض سؤالًا لا شك أنه عرض لكثير منكم لأنه يمسنا، وهو هل كان للديانة المصرية أي أثر خارج وادي النيل، وهل كان لها تأثير محسوس في ديانات الأمم الأخرى لا سيما اليهودية والنصرانية وصفوة القول هل كان لديانة القدماء المصريين شأن خطير في تاريخ العالم؟

الديانة المصرية خارج مصر

تخطت الديانة المصرية في الألف الثاني قبل الميلاد حدود مصر، وذلك أنه لما أغار المصريون بجيوشهم على السودان، وتوغلوا بها في آسيا حتى أوردوها شواطئ الفرات، وأسسوا هناك دعائم إدارتهم، وأقاموا مخافر حامياتهم، حملوا معهم ديانتهم إلى تلك الأصقاع التي فتحوها، في تلك البلاد النائية أقيمت معابد للآلهة المصرية وقدمت لها القرابين، بيد أنه لم يحدث قط أن أكره المصريون سكان البلاد المقلوبة، سواء أكانوا من الزنوج أم الأسيويين، على نبذ معبوداتهم الوطنية واعتناق ديانة الفاتحين، اللهم إلا أثناء الفترة القصيرة التي حكم فيها الملك الزائغ امنحوتب الرابع، بل أنهم على العكس أقروا المغلوبين على ديانتهم القومية ولم يتعرضوا لها.

أهم آلهة مصر في الخارج

وقد كان المقام الأول بين الآلهة التي عبدت في الأقطار الأجنبية محفوظًا بطبيعة الحال لرب الآلهة أمون رع معبود طيبة وإله الدولة الحديثة، بيد أن الإلهين رع حوريس وفتاح الحاوسين للمدينتين الكبيرتين الأخريين (هليوبوليس ومفيس) لم يفقدا حظهما الخاص من الإجلال والاحترام، وكان هؤلاء الآلهة الثلاثة مظهرًا أو رمزًا للدولة المصرية؛ فكل ما يقدم لهم من آيات الخشوع إنما هو إقرار بسلطان مصر على الشعوب المقهورة واعتراف بسيطرتها على البلاد المفتتحة، لهذا كان بدعة

مستحدثة ما حصل من تقديم فروض العبادة لذات الملك (الممثل الحي للسلطة المصرية) علاوة على آلهة الدولة.

عبادة الملك خارج مصر

حقًّا أن المصريين اعتبروا فرعون منذ قديم الزمان مثالًا مجسدًا للإله (حوريس) أو (ابن إله الشمس)، كما سموه باختصار (الإله الصال)، ولكن لم يحصل قط أن فرعونًا كان أثناء حياته موضع إحلال وعبادة في مصر نفسها، ولم يوضع تمثال أي ملك من الملوك بجانب تمثال إله المدينة في أي معبد من المعابد، وإنما اجترأ القوم على هذه البدعة أولًا في البلاد الأجنبية أو بالحرى بلاد النوبة، إذ لم نعثر في آسيا على أثر يدل على تأليه الفراعنة وهم أحياء، ففي بلاد النوبة كانت تنشأ المعابد لملوك مصر وتقدم لهم القرابين في (قدس الأقداس).

النوبة أكثر البلاد قبولًا للمدنية المصرية

وفي أحد هياكل النوبة يرى فرعون متبوئًا عرش الألوهية بجانب أمون وفتاح أو رع حوريس، تقدم لهم آيات الخشوع وشعائر التقديس، وقد كان سكان النوبة الزنوج الذين كانوا في عهد الفتح المصري لا يزالون يتخبطون في ظلمات الهمجية، أشد الناس خارج مصر قبولًا واحترامًا للمدنية المصرية على العموم؛ فلم يلبثوا أن تحضروا وتمصروا تدريجًا، وأحلوا الآلهة المصرية محل آلهتهم القومية أو عبدوها بجانبها مصورة في هيئة مصرية، كل ذلك بلا

ضغط أو إكراه خارجي من السلطات المصرية.

عظم نفوذ الكهنة في النوبة

وكان سلطان الكهنة على الاهلين في النوبة أوسع وأقوى منه في مصر نفسها؛ حتى أنه لما تكونت دولة منفصلة في أعالي النيل مستقلة عن مصر وذلك حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م صار ملوك هذه الدولة خاضعين كل الخضوع لسيطرة الكهنة؛ فلم يكونوا يستطيعون القيام بأي عمل أو المضي في أي مشروع الأبعد الحصول على رضا الآلهة أي الكهنة أنفسهم، يشهد بذلك ما قاله هيرودوت (كان الملوك يسيرون إلى ميدان القتال متى أمرهم زوس أمون على لسان وحيه ويذهبون حيثما يوجههم)، وكان النوبيون القدماء أحرص من المصريين أنفسهم على تعاليم الطقوس الدينية لا سيما قوانين الأطعمة، ومما يروى في هذا الصدد أن بعانخي ملك النوبة لما ذهب في حملة إلى أسفل وادي النيل حوالي القرن الثامن قبل الميلاد لم يسمح لأمراء تلك البلاد بالدخول عليه (لأنهم كانوا نجسين يأكلون السمك وهو رجس ممقوت في القصر).

الحبشة ليست مهد الديانة المصرية

لا غرابة إذن أن نرى النوبة في عصر انحطاط الديانة وتقلص نفوذ الكهنة في مصر أشد مصرية من المصريين أنفسهم، كما لا يدع في أن الكهنة المصريين حينئذ كانوا يعتبرون بلاد الحبشة المرجع الصادق للديانة المصرية

الصحيحة، ومن هنا يتضح لنا كيف وقع كتاب الإغريق في ذلك الخطأ الشائع وهو اعتبار الحبشة مهد المدنية المصرية القديمة كلها، على أن الزمان لم يلبث أن دار دورته، فاضمحلت الحضارة المصرية في بلاد النوبة، كما تضاءل شأن الديانة فيها، ولعله لم يبق ثمة شيء مصري يذكر حينما أقيم الصليب في القرن الرابع الميلادي الجنوبي جنادل أسوان.

عبادة آمون في الواحات ووحيه

وفي عهد الدولة الحديثة أدخل المستعمرون المصريون عبادة إلههم القومي الأكبر (أمون رع) إلى واحات صحراء ليبيا الواقعة غربي وادي النيل، وظل هذا الإله معبودًا هناك بعد أن سقطت زعامته على الإلهة المصرية بمدة طويلة وقد أقيمت لآمون معابد في الواحتين الخارجة والبحرية وهما المسميتان عند الرومان بالكبرى والصغرى، ولكنها لم تبلغ من الشهرة وبعد الصيت ما بلغه معبده المقدس في واحة سيوه موطنه الخاص، وكان لآمون في هذه الواحة أيضًا تمثال وحي مشهور على نسق وحي طيبه، وقد ذاع صيته سريعًا في أقطار ليبيا المجاورة ووصل إلى سيرين حتى لقد بلغ بلاد اليونان، وقد عد هذا الوحي في عهد (سيرس) في القرن السادس قبل الميلاد من أصدق ألسنة الغيب وأعظمها شأنًا في العالم القديم، بيد أنه لم يبلغ أوجه شهرته وقمة مجده إلا في سنة

٣٣١ ق.م، وذلك لما قام الإسكندر الأكبر برحلته المشهورة خلال الصحراء ميممًا هذا الوحي، فحياة كهنة آمون الذي كان يمثل برأس كبش وجسم إنسان بلقب (ابن الإله).

انتشار الحضارة والديانة المصرية في سوريا

وقد أثرت الحضارة المصرية وعظم نفوذها أيضًا في سورية وفلسطين حيث انفردت السلطة المصرية بالسيادة المطلقة قرونًا عدة أثناء الألف الثاني قبل الميلاد، بل إن العناصر المصرية زاحمت الفنون في سورية وامتزجت امتزاجًا غريبًا بالعناصر البابلية الأقدم عهدًا والتي كان لها حتى ذلك العهد المكانة الأولى، كذلك كان شأن المعتقدات الدينية المصرية فإنها وجدت صدرًا رحبًا في المدن السورية التي احتلتها جيوش فرعون، وشيد في أمكنه عدة معابد للآلهة المصرية، نذكر من ذلك على سبيل المثال المعبد الذي أقامه رمسيس الثالث في كنعان لإله الدولة أمون، بيد أن الآلهة السورية (يعلم) و(اشتاروت) لم تفقد مكانتها قط بهذه الإغارة الأجنبية، بل على العكس كان لها من المصريين المستعمرين احترام وإجلال، وهكذا لم ترسخ قدم الديانة المصرية في سوريا على ما يظهر، ويحتمل أنه عند انسحاب آخر حامية منها انقطعت فجأة تلك القرابين التي كانت تقدم للآلهة المصرية.

تأثير الديانة في الغرباء هكذا كان مبلغ تأثير الديانة المصرية في البلاد المتمدينة الأجنبية، ولكنه يرجع أن تأثيرها في الغرباء الذين استوطنوا وادي النيل كان بطريقة مختلفة جدًا؛ فإن هؤلاء الأجانب أينما ساروا أو جلوا في المدن أو الأرياف كانوا حتمًا يختلطون بالكهنة المصريين ويحتكمون بآلهتهم ويقفون على أساليب عباداتهم التي تسير على قواعد ثابتة من أقدم عصور التاريخ.

بني إسرائيل وعلى ذكر الغرباء سينصرف ذهنكم في الحال كما انصرف ذهني إلى بني إسرائيل الذين استوطنوا أرض غوش (وادي الطميلات) مدة طويلة على ما جاء في التوراة، والذين نشأ نبيهم العظيم موسى في كنف فرعون وتربى في حماه وتلقى الحكمة من أفواه كهنته، على أني إذا تكلمت عن إقامة بني إسرائيل في مصر وبحثت في تأثير ديانة المصريين وحضارتهم في العبرانيين سأكون مضطرًا لقصر كلامي على الحقائق الضرورية فقط، وليس قصدي أن أثير مجادلة أخرى عن منفيس وموسى كالمجادلة عن بابل والإنجيل وهي التي أقلقت بال كثير من الناس في ألمانيا وفي بلادكم أيضًا.

عدم ذكر يوسف وموسى في الآداب يجدر بي أن ألاحظ أولًا أنه لم يرد في موضع ما من الآداب المصرية أي إشارة لإقامة يوسف في مصر، حتى اسم موسى نفسهم لم يذكر في شيء من الكتابات

المصرية، وهذا ما حمل كثيرين من محدثي المؤرخين على الشك فيما ورد في الإنجيل من الحوادث التاريخية المسببة وعدها من الخرافات.

المصرية

حوادث الإنجيل التاريخية

بيد أني لا أرى هذا الرأي المبالغ في الإلحاد، حقًا إن ما ورد من القصص في أسفار موسى مزخرف بكثير من التلفيقات الدخيلة والخرافات التي لا تختص بها هذه الأسفار – وهنا أشير فقط إلى قصة يوسف وامرأة العزيز وإلى رؤيا يوسف – ولكن أجزاء التوراة الأخرى الخاصة ببني إسرائيل في مصر نكشف لنا معلومات دقيقة عن حالات مصر القديمة، هذا إلى أنها تملأ فراغًا متسعًا من تقاليد بني إسرائيل الموروثة، لذلك لا نجد سبيلًا لنفيها بلا مناقشة أو اعتبارها غير تاريخية، على أنه من الصعب جدًا تمييز الحقائق التاريخية من الأساطير الواردة في سفر التكوين وخروج بني إسرائيل من مصر، فإن هذا ليس بأسهل من وضع جدول للحوادث التاريخية الواردة في قصة نبلنجنليد (**Nibelungenlied**) بدون سابق معرفة لهجة الأمم، وأرى أنه لا ينبغي أن نعتبر من الحقائق التاريخية غير أمرين هما إقامة بني إسرائيل في مصر ثم شخصية موسى، أما تعيين تواريخ إقامة بني إسرائيل وخروجهم من مصر فيما لا سبيل إليه، وحسبنا أن نعتبر وقوع هذه الحوادث في النصف الأخير من الألف الثاني

قبل الميلاد.

أثر الديانة المصرية في ديانة بني إسرائيل

لا نزاع في أن العبرانيين عند خروجهم من مصر حملوا معهم كثيرًا من العادات والتقاليد المقتبسة من حضارة تلك البلاد، اليس (من بين الآلهة التي أخرجت بني إسرائيل من مصر) ذلك العجل المقدس أو العجل الذهبي الذي عمت عبادته شواطئ النيل؟ أضف إلى ذلك اسم موسى المؤسس للديانة اليهودية يدلنا في الحال على ما كان بينه وبين الحضارة المصرية من وثيق الصلة؛ فإن ذلك الاسم المصري والجزء الأول منه (مس) معناه ابن، وتجده في كثير من أسماء الأشخاص في عصر الدولة الحديثة مركبًا مع أسماء الآلهة، وذلك مثل (أمين مس) ومعناه ابن آمون، و(تحوت مس) ومعناه ابن الإله تحوت، أو (أصع مس) وهو الذي حُرَف في اليونانية إلى (أموسيس) و(أماسيس) ومعناه ابن القمر.

لهذه الاعتبارات كان من المرجح جدًا أن تكون الديانة التي جاء بها موسى قد تأثرت بمعتقدات المصريين، كما أن شريعة بني إسرائيل وشعائر عبادتهم احتوت كثيرًا من العناصر المصرية، فمثلًا السفينة المقدسة الجديدة التي ذكرها موسى فإنها ليست إلا نموذجًا من السفن المصرية التي نجدها في المقصورة التي كان يحفظ فيها تمثال الإله على ما وصفنا آنفًا، ولدينا بدل السفن المقدسة التي

كانت تستعمل في النيل عند قدماء المصريين تلك السفينة التي استعملها بنو إسرائيل للعبادة في الصحراء، ويصعب علينا بلا شك أن نذكر بالتفصيل مقدار ما بقي في ديانة بني إسرائيل من الآراء المصرية القديمة بعد أن محصها الأنبياء، وينبغي أن أحذركم على الخصوص من فكرة عم اعتقادها يومًا ما وهي أن التوحيد عند بني إسرائيل كان ارثًا دينيًا من كهنة عين شمس، وأن التوحيد الساذج الذي نادى به امنحوتب الرابع كان له تأثير في ديانة بني إسرائيل؛ فإن هذا تخمين ضعيف ليس في تاريخ الديانات ما يساعد عليه، ومن المرجح من جهة أخرى أن الفصول الشعرية من التوراة قد اقتبست كثيرًا من التعبيرات المصرية، وأن أجزاء كاملة من الآداب العبرية سيما الحكم والأمثال الشعرية قد أفرغت في قالب مصري، ولا يعزبن عن بالنا أن ثمة كثيرًا من أوجه التشابه والتطابق بين الأناشيد البابلية والعبرية، لهذا كان من الصعب جدًا أن نقرر بالدقة مبلغ تأثير بابل ومنفيس في الآداب العبرية، على أنا لا نشك في أن أحسن الأشعار الواردة في التوراة من أصل عنبري بحت، والظاهر فضلًا عما تقدم أن الديانة المصرية كانت ذات أثر بليغ في التعاليم الإسرائيلية المتأخرة، وذلك في عهد الحكم اليوناني حين استوطنت طوائف جمة من اليهود

الإسكندرية وغيرها من المدن المصرية.

أهم المعتقدات التي أخذتها اليهودية والمسيحية عن الديانة المصرية

ولعل أهم المعتقدات التي أخذتها اليهودية المتأخرة وبالتالي بعض طوائف المسيحية عن مصر في ذلك الحين ما تعلق منها بالعالم الأخروي، فإنا إذا وجدنا في المسيحية الأولى في الفصل الأخير من الإنجيل ذكرًا لبوابة من الشبه للعالم السفلي خطر ببالنا حتمًا تلك البوابة النارية للعالم السفلي عند قدماء المصريين.

هذا إلى أن اعتقاد اليهودية المتأخرة والمسيحية في البعث نشأ على ما يظهر من آراء خفية غريبة تذكرنا كثيرًا بآراء المصريين في أزريس، وعودته إلى الحياة، وهناك أيضًا نرى الملك وكل فرد من بعده قد ماثل الإله وحل به ما حلى من تصرفات الحدثان، غير أنه من المؤكد أن الآراء المصرية ليست وحدها المصدر المسئول عن نشأة معتقدات اليهودية والنصرانية في العالم الأخروي، ومن المستحيل اليوم أن نفصل العناصر المصرية البحتة فيها.

تأثير الديانة المصرية في الديانة اليونانية

ويمكننا بأوضح من هذا أن نتتبع تقدم وتأثير الآلهة المصرية في العالم اليوناني الروماني؛ ففي القرن الثالث قبل الميلاد أدخلت صنوف العبادات المصرية في اليونان، سيما الإله الجديد سرابيس وطائفة الآلهة المتصلة بأزريس وهي أزيس وابنها حوربوخراد "حوريس الطفل" وكذا أنوبيس، وقد وجدت هذه الآلهة طريقها من اليونان إلى

إيطاليا ورومية حيث لقيت مكانًا رحبًا ومقامًا سهلًا، وقد اجتذبت هذه المناسك الخفية الأجنبية عقول عامة القوم، وزادهم تعلقًا بها وحرصًا عليها إنكار الحكومة لها مما حملهم على مزاولتها في الخفاء.

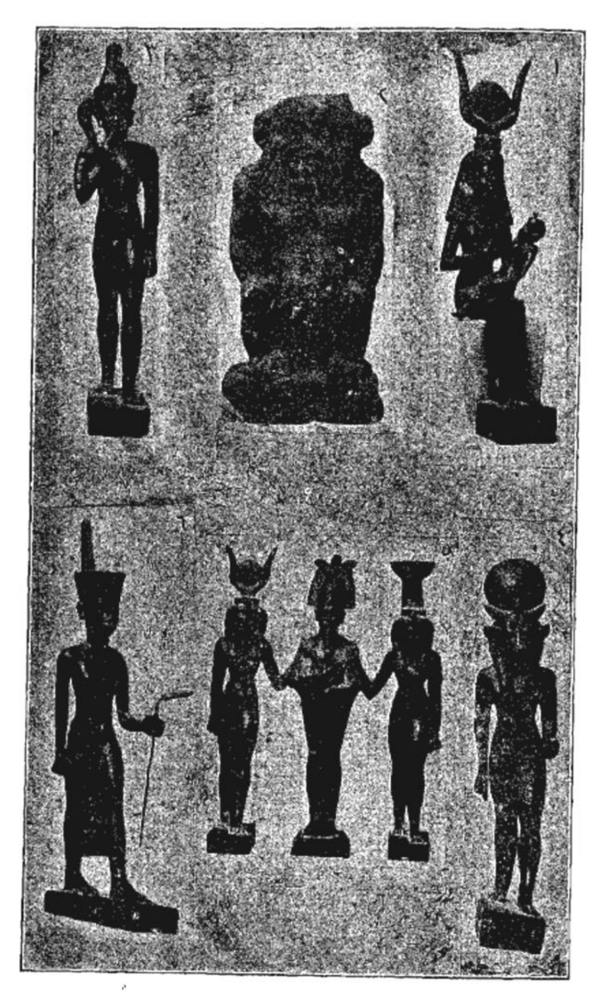
سرابيس في رومية

واستمر الحال كذلك حتى أجيز في النهاية بعد محن عدة إقامة شعائر الديانات الأجنبية بين جدران رومية وذلك في عهد "كراكالا" في مستهل القرن الثالث قبل الميلاد، وقد بنى الإمبراطور نفسه معبدًا فخمًا لسرابيس على "الكِرِنَال"، وأخذ الآلهة المصريون يمثلون هناك دورًا هامًا في الحياة الدينية، ولا أدل على ذلك مما أبداه المسيحيون فيما بعد من شدة المقت وفرط الحقد في محاربتهم لهذه المعبودات الوثنية.

وقد تغلبت المسيحية في النهاية على الديانة المصرية كما تغلبت على اليونانية، ولكن الديانة المنتصرة احتفظت بآثار داخلية وخارجية من كل من مأبقتيها، فلا بدع اذن أن تكون الديانة المصرية المكانة الخطيرة التي لها في تاريخ ديانات العالم.

يقول "ثيودورمومسن" إن وضع تمثال مصري بجانب التحف اليونانية يكون له من التأثير في النفس ما لحذاء العروس الذي لبسته في طفولتها إذا عرض يوم زفافها، وإذا كان هذا التشابه حقيقة في التمثال كان كذلك في

الديانة المصرية إذا قارناها بالفلسفة اليونانية أو الديانة المسيحية، على أن ما وصلنا إليه من البحث في المتون المصرية يدلنا على أن ديانة القوم لم يكن فيها أسرار عميقة، وأنه لم ينطق فيها بكلمة الحكمة الأخيرة كما تخيل علماء اليونان وقتًا ما، ولن تكون تماثيل الآلهة المصرية ذات الرءوس الحيوانية والرموز الغريبة مألوفة لنا كما ألفنا آلهة أمليس، رفقاء شبابنا، ولكنا مع ذلك نجد بين ثنايا الديانة المصرية وطقوسها تيارًا فياضًا من الديانة الصادقة له من القوة ما به يتغلب على ذوي العقول الراجحة، وأرجو أن أكون قد وفقت إلى تفهيمكم ما فيه الكفاية مما سمعتموه مني، وأختتم بكلمات "جيتي" الخالدة: «الله هو الشرق، الله هو الغرب».



١) أزريس ترضع حوريس.

٢) المعبود "بس"

٣) المعبود حربو خراد

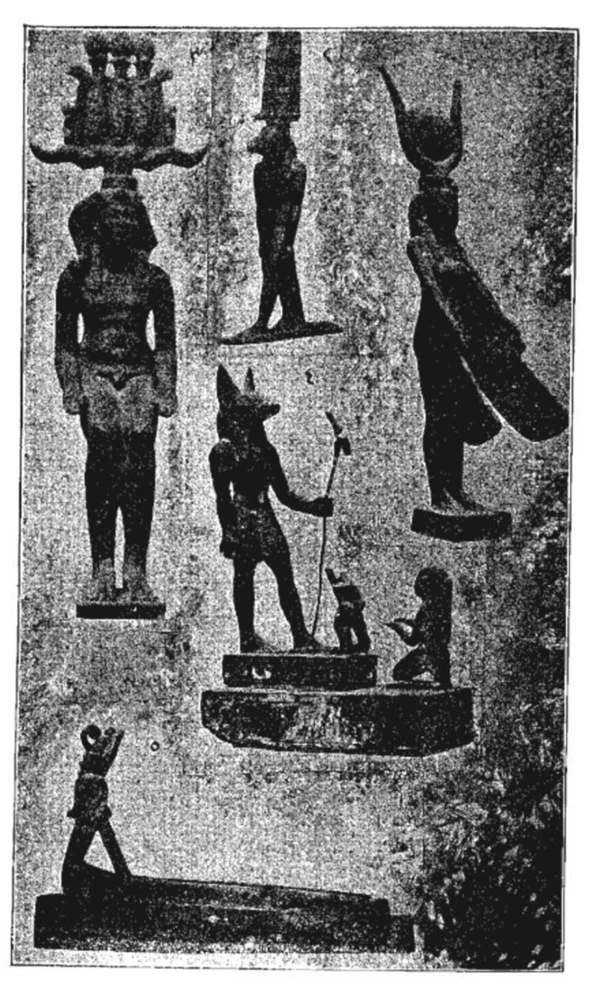
٤) المعبود حاتحور

٥) أزريس بين أختيه أزيس ونفتيس

٦) المعبودة نيت



١) الإلهة سخت
٢) المعبود فتاح
٣) المعبود نفرتم
٤) العجل أبيس يكتنفه أزيس ونفتس
٥) المعبودة أزيس في شكل حاتحور
٦) المعبودة بستت أي القطة
٧) المعبود خلس



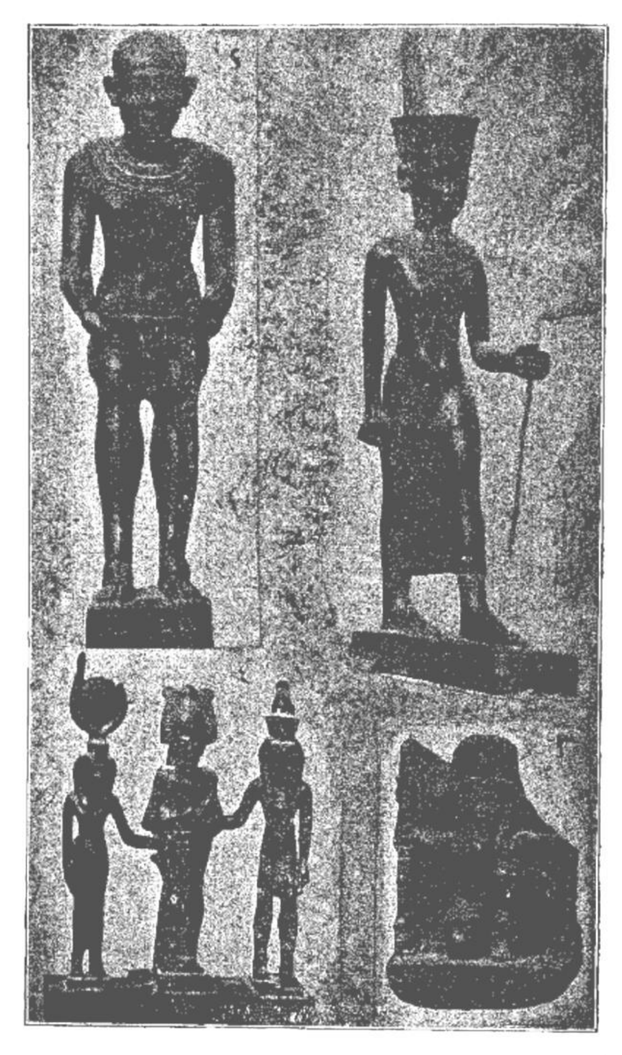
١) أزيس المجنحة

٢) المعبود سبك أي التمساح

٣) حوريس لابسًا التاج

٤) المعبود أنو بيس (ابن آوي)

٥) المعبود اتم



١) الإلهة نيت
٢) أمحوتب الحكيم
٣) الإله شو
٤) الثالوث (أزريس وحوريس وأزيس)



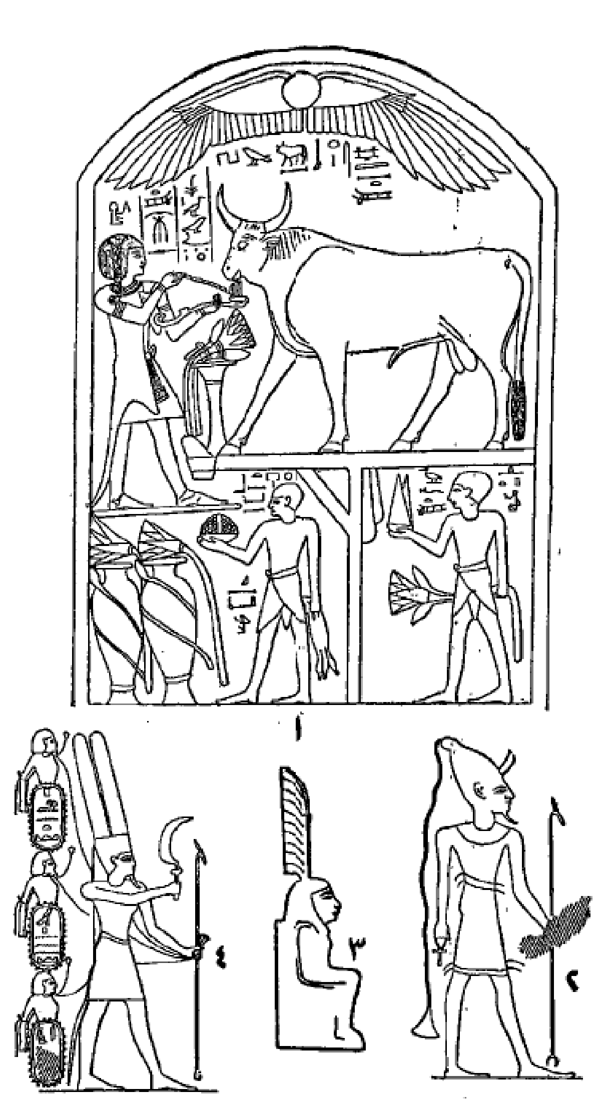
١) الإله حوريس

٢) الإلهة تواريت

٣) المعبود حوريس (بهدت) أي ادفو

٤) المعبود "من"

٥) المعبود حوريس لابسًا تاج أبيه أزريس



١) لوحة تمثل عبادة العجل منفيس

٢) الإله ستوخ (ست)

٣) إله العدل "مَعَتْ"

٤) الإله الأعظم أمون رع قابضًا على الأسرى



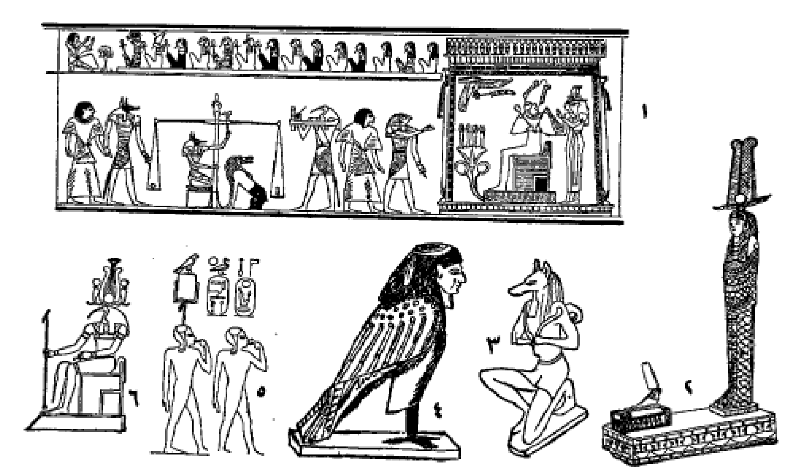
١) إخناتون وزوجه يعبدان قرص الشمس (أتون)

٢) الكبش منديس

٣) رمز أنو بيس

٤) الإله شو يسند نوت وعلى ظهرها زورق الشمس وتحت رجليها الإله جب

٥) إله النيل



١) قاعة العدل أو يوم الحساب

٢) فتاح سوكاريس أزريس على صندوق من البردي

٣) المعبود وبوات

٤) الروح

٥) أمنحوتب الثالث وقرينته (الكا)

٦) الإله تحوت

الفهرس